الفصل الأول

التشبيه النبوي

تمهيد :

يكاد يكون من نافلة القول ، أن للتشبيه كأسلوب بياني دوره الخطير في المعاني والأغراض . ولقد أفاض البلاغيون في بيان ثمرته وآثاره ، فهو يفيد الإيضاح ، والتقرير والإيجاز والمبالغة والتوكيد ، وعمله في الأسلوب ، في التأليف بين المختلفين ، والتقريب بين المتباعدين وبث الوحدة في الصور المتفرقة ، وصب المعاني المتعلقة والمتخيلة ، والمتوهمة في قوالب الشخوص الحية ، والأشباح النابضة المتحركة .

وليس هدف التشبيه عقد صلة بين متنافرين ، أو إيجاد علاقة بين مختلفين أو مجرد رسم آلى كالصورة الشمسية ، بل إن فضله أن يزيدنا إحساسا بالصورة من صلة صادقة قد تؤثر في النفس ، كما أنه وسيلة إلى نقل أحاسيس تمزج الصورة بالعاطفة في ذكاء كبير وليست عملية التشبيه يسيرة ، ذلك أن الأديب يلجأ إلى صوره المختزلة في أعماق النفس تلك التي تكون الخيال عنده ، ثم يقوم بتنسيق فني في عملية التشبيه تراعى فيه أوجه التقارب ، وإدراك خافي العلاقات ، واختيار مايحسن من صور تجلو المعاني ، وتنقل الشعور إلى النفس حيًا ممتازًا ، وبمقدار ما يوفق الأديب في ذلك يكون حظه من الإبداع والبراعة ، ولا شك أن هذه العملية ليست في الأدباء على سواء بل كل يصف بمقدار ما عنده بيانا وقوة أو عجزا وعيا[1] .

---

(١) انظر في هذا : أسرار البلاغة : عبد القاهر ص ٦٥-٨٠، ١٢١-١٤٠، والطراز ١/١٧٣ وما بعدها وفن التشبيه ، الجندي ١/٥٧ ، ٢/ ٢٣ ، ٦٣ ، والعقاد ناقدا : عبد الحي دياب ص ٤٤٦ وما بعدها ، وسيدنا محمد في إبداعه ، محمد البيومي ص ٢٢١ .

منهجنا :

ليس هدفنا استقصاء التقسيم العقلي للتشبيه عند مدرسة السكاكي ، فهذه الطريقة كعملية الأرفف التي تملأ آليا بجفاف وسذاجة ، ولقد تتبع المتأخرون في دأب ـ عقلي المتقاربات في الحجوم والأوزان والألوان فبرعوا في التفريع والتنويع ، ولكنهم قدموا لنا تشبيها شائها عائقا عن الغاية ، من هنا جاء النقد البلاغي المعاصر ليقتضب كثيرا من هذه التقسيمات مرجعًا حقيقة التشبيه الجيد إلى حسن الإفادة ، وإدراك صادق الصلة بين الطرفين بما يؤثر ويمنح ويزيدنا حسا وتخيلا وفنا ، وسوف ـ ندرس إن شاء الله ـ التشبيه النبوي مبينين خصائصه المتميزة ، وطبيعته الذاتية النابعة من أساليبه ، ضاربين صفحا عما هو خارج عن حقيقته :

التشبيه والتمثيل في البيان النبوي :

سنرى أن التشبيه النبوي كان أداة تعبيرية عند الرسول ﷺ ووسيلة للبيان والإيضاح والتربية والتهذيب ، والتبشير ، والترغيب والترهيب ، والتزيين والتقبيح وغير ذلك ، فهو في خدمة الرسالة المطهرة التي غيرت الإنسان بتغيير أعماقه وتبديل طبائعه بطباع الفطرة وأخلاق النبوة وسنتتبع الأغراض التي قام بها التشبيه والتمثيل بيانا وتأكيدا ، وتصويرا .

أولاً : القرآن الكريم :

معجزة الرسول ﷺ البيانية والأخلاقية نزل من لدن حكيم خبير هداية وبيانا ورحمة وشفاء لما في الصدور ، وهو روح الإسلام وسر وجوده ، لذا حرص النبي الكريم على الدعوة إلى القرآن تلاوة وفهما ، مرغبًا حاثا ، ومحذرا من إغفاله وجفائه جاعلا التشبيه معرضا لذلك . .

قال رسول الله ﷺ :

١ - « تعلموا القرآن فاقرأوه ، واقرئوا ، فإن مثل القرآن لمن تعلمه كمثل جراب محشو مسكا يفوح بريحه كل مكان ، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب وكيء على مسك »[١].

---

(١) التاج الجامع ١٧/٤

٢- « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب ، وطعمها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها ، وطعمها حلو ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر »[1].

٣- « إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعلقة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت »[2].

٤- « تعاهدوا القرآن فو الذي نفسي بيده لهو أشد تفصيًا من الإبل في عقلها »[3].

٥- « إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر وكتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي »[4].

٦- « اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غماماتان أو كأنهما غيابتان وكأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما »[5].

٧- « لكل شيء سنام ، وإن سنام القرآن سورة البقرة ، وفيها آية هي سيدة القرآن هي آية الكرسي »[6].

٨- « أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خلفات عظام سمان ؟ قلنا : نعم ، قال : فثلاث آيات يقرأ بهن في صلاته خير له من ثلاث خلفات عظام سمان »[7].

٩- « إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب »[8].

---

(١) التاج الجامع ١٤/٤
(٢،٣) المرجع السابق ٨/٤
(٤،٥) المرجع السابق ١٦/٤
(٦) المرجع السابق ١٨/٤
(٧) المرجع السابق ١٨٦/٤
(٨) المرجع السابق ٦/٤

ونلاحظ هنا هذه المسالك في الدعوة إلى القرآن ، فلقد تنوع الغرض بين ترغيب وترهيب كما تنوع التشبيه بين تمثيل ومتعدد ومفرد ، ونجد في الجميع الدعوة إلى تعلم القرآن وقراءته ، وتعهده بالتلاوة ، وتنفيذ تعاليمه ، كما سلط الأضواء على سور منه : كالزهراوين أو آية الكرسي ، وفي جانب الترهيب حذر من إهماله بعدم تعهده بالتلاوة ، ويصل التشبيه في الحالة الأولى إلى الغاية ، والمشبه به في جانب الترغيب يحمل الإثارة والإيحاء والتحبيب فالقرآن لمن يقرءوه : جراب محشو مسكا فواح الرائحة ، أو جراب مختوم بالمسك ، وهو أترجة طيبة الشذى عذبة المذاق ، وهو حبل متخيل يمتد من السماء إلى الأرض ، وهو إبل صعبة المراس يملكها من يعقلها ، وثلاث آيات منه خير من ثلاث خلفات سمان ، وسورة البقرة خير كلها كسنام ناقة سمينة ، وسورة البقرة وآل عمران في الآخرة حماية لصاحبها فهما غمامتان أو ظلتان تحميان أو مجموعتان من طير صافات أجنحتهن تقي من لهيب الشمس وتعكس الظل الظليل .

والمشبه به منتزع من واقع الحياة وله أثره المادي في معيشتهم ثم هو محبب جميل يغري بما له من متعة روحية تتمثل في الرائحة المنعشة ، وتقع نادي في طيب المذاق وحلاوة الطعم كالأترجة والتمر دلالة أن القرآن يشبع الروح بمعانيه القدسية ثم هو ثم هو تمتع الإحساس الفني ببلاغته وبيانه ، وهو في الاعتماد عليه عضد كالحبل يزيد القوة ويشد الظهر وهو حبل متخيل يملأ العين والقلب ، لأنه من السماء إلى الأرض ممدود ، وفي هذا تصوير لقوة سنده ، وعظيم نفعه ، وهو كهذه الإبل التي حياتهم عليها مطعما وملبسا وسكنا وسفرا ، إن شاءوا انتفعوا بها إذا عقلوها وإن تركوها نفرت وضلت فضاعوا .

وكل ما سبق بتصوير المعنى المحسوس المفيد تأكيدا وترغيبًا واقع في الدنيا أما في الآخرة فالأثر أبقى ، وكم هو معبر عن الوقاية حين لا وقاية ولا حماية فسورة البقرة وآل عمران سحابتان أو ظلتان أو هاتان المجموعتان

من الطيور كأنما كل آية تنقلب طائرا يؤدى مع رفاقه مهمة موكولا بها ، إنها تلقى أشعة الشمس وتظليل صاحبها وحمايته ، والصورة هنا متحركة نابضة لا يمل الخيال من العجب منها ويتشربها الوعي ، ونلاحظ هنا التزام الأداة «كأن» للإشعار بأنها تشبيهات مستقلة لكل أثره في المعنى العام ، وهذا يوفر للترغيب ما يشاء .

أما في جانب الترهيب فهنا صور محسوسة تثير الفزع والنفور : فالمنافق التارك للقرآن حنظلة بهذا الصوت المعبر طعمها صاب ميتة الرائحة ، ومن لا يعرف شيئًا من القرآن بيت خرب تعيش فيه العناكب والهوام والشياطين ويبعث الوحشة والرعب ، فهو شر كله ، وبهذا يصل التقبيح والتنفير من تارك القرآن ، كما نجد التحذير في تشبيه القرآن في تفلته بالإبل المتفصية من عقلها ذاهبة على وجهها ، بل هو أشد تفلتًا منها ، هنا الضياع والندامة وهو جزاء من أعطى ففرط ، كما أن هنا ملحظًا هو أن التلاوة تكاد تلحق العمل بها لأن كثرة التلاوة دافعة للتدبر والعمل ، فالمنافق بباطنه المظلم وهو يقرأ القرآن ـ كريحانة ريحها طيب لكن طعمها مر ، والمؤمن الذي لا يقرأ في نقاء قلبه كالتمر حلو المذاق بلا رائحة ، ولا يخفى تفضيل الباطن على الظاهر لأنه منبع السلوك الإنساني كما لا يخفى التنفير من ترك القرآن وترك العمل به ، ونلحظ : اعتماد التشبيه التمثيلي وهو الغالب أو المفرد وهو الأقل كما في حديث الآخرة «غيابتان أو عبابتان . . . . الحديث» وهو ما يسميه البلاغيون بالجمع حين يتعدد الطرف الثاني (المشبه به) ، والجمع بين تشبيهات متعددة كما في حديث المؤمن والمنافق قوة في التصوير ومبالغة في الترهيب والتنفير بالجمع بينهما في قرن واحد في أسلوب واحد .

وحديث الأترجة كل تشبيهاته مركبة كما عند «ابن الأثير» قال : ألا ترى أن النبي ﷺ شبه المؤمن القارئ ، وهو متصف بصفتين هما الإيمان والقراءة

بالأترجة ، وهي ذات وصفين هما الطعم والريحة ، وكذلك يجري الحكم في المؤمن غير القارئ وفي المنافق القارئ غير القارئ[1].

ذكر الله تعالى :

قال رسول الله ﷺ :

« مثل البيت الذي يذكر الله فيه ، والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت »[2]

« إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال حلق الذكر »[3]

قال رجل : أخبرني بشيء أتشبث به ، قال : عليه الصلاة والسلام لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله »[4].

وقد وفى التشبيه بالغرض مع المبالغة والتخيل والتجسيم .

فالبيت الذي يذكر الله فيه مثل الرجل الممتلئ حياة وحسا وحركة دلالة على نفعه وحسن أثره ، والبيت المحروم من الذكر كجثة ميت لا حس فيها ولا حركة منقطع الأثر عديم النفع ، مع قرن الحي بالميت يتأكد المعنى ويبرز الترغيب والترهيب المؤثرين في النفس .

وحلق الذكر المجتمعة لهذا الغرض إنهم كمن يرتعون وينعمون في بساتين لا تعرفها الأرض إنها رياض الجنة ، وهذه الصورة لها إيحاءاتها وظلالها ، فالقرآن ليس من هذا العالم وهو يسمو بالروح إلى عالم الطهارة ، ويمنحها لذة لا تعدلها لذة أرضية ، ومثله في الترغيب جميل الذكر طيبًا عذبا رطبا يبل اللسان ويطفىء الظمأ ، ولا يخفي أثر التشويق في الصياغة لاسيما في الحديث الثاني .

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لابن الأثير ٢/ ١٤٠

(٢) التاج الجامع ٥/٨٧

(٣) المرجع السابق ٥/٩٠

(٤) المرجع السابق ٥/٩٠

النبي ﷺ ورسالته :

قال رسول الله ﷺ :

١- « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ، قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »(١)

٢- « إن مثلي ومثل ما بعثني الله به ، كمثل رجل أتى قومه ، فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني ، وإني أنا النذير العريان ، فالنجاء فأطاعه طائفة فأدلجوا فانطلقوا على مهلتهم ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني ، واتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق »(٢)

٣- « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها بقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ، وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به »(٣)

هذه ثلاثة أحاديث خرجت في معرض التمثيل ، قصة قصيرة ، دخلت الأداة على اسم ظاهر ليس مقصودًا لذاته ولا يستقل بالحديث ، وإنما إيماء إلى أهميته وبناء التشبيه عليه ، كما ختمت ببيان العبرة وتوضيح المثل ، ورد الكلام إلى المشبه تأكيدا وترسيبا للمعنى في النفس ، كما يلاحظ انتزاع التمثيل من عمل إنساني أو طبائع اجتماعية ، أو مظاهر كونية ، والحديث الأول يبين دور الرسالة المحمدية بين الرسالات السابقة ، في إتمام التشريع الإلهي الذي تنزل

---

(١) التاج الجامع ٢٢٩/٣

(٢) المرجع السابق ٤٣/١

(٣) المرجع السابق ٦٧/١

على الإنسان في مدارج تطوره ملائما عقله ونضجه وطاقته ، ثم ليبين كمال هذه الرسالة وخلودها وملاءمتها للإنسان الناضج حتى نهاية الزمان .

والتصوير هنا شامل محسوس : رجل بنى بيتا فأجمله وأحسنه ، لكنه ترك موضعا خطيرًا لا يتم المنزل بدونه إنه موضع لبنة في زاوية تجمع إليها اتجاهين من البنيان ، وحسن المنزل لا يخفى ، ولكن موقع هذه اللبنة مثير العجب وينشط الخيال لمخالفته الواقع المرئي ، ثم وضعت اللبنة في مكانها من الزاوية ليكمل البناء ونلحظ هنا :

١- البناء رمز للرسالات : تصوير للغائب المعقول بالمشاهد المحسوس .

٢- التخيل في البناء المعروف ، باللبنة وموضعها الخطير مما يلفت النظر إيماء إلى أهمية الرسالة المحمدية وخطورتها التدليل بالقياس الحسي على أنه ﷺ خاتم النبيين .

والحديث الثاني : يوضح :

دور الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومهمته ، وموقف الخلق منه ، ولقد التمس لذلك تصويرا من واقع البيئة العربية التي تعرف الحرب ، وآثارها المخيفة ومفاجآتها المذهلة دليلا على أن أمر الرسالة جد لا هزل فيه ، مع تنسيقه في أسلوب القصة المتتابعة الأحداث ، المتلاحقة العبارات تشويقا وتأثيرا بأسلوب مشدود ثائر ، مع التعليق عليها عودًا للكلام على بدئه ، فذلك : « مثل من أطاعني ومثل من عصاني » ، زيادة للاعتبار والرغب والرهب .

فنحن نكاد نرى رجلا منذرا مذعورا تعرى من أثوابه ـ على عادتهم ـ في النذير بشؤم الأخبار وهو يصرخ من أعماقه محذرا ، والناس صنفان : عقلاء سلموا ، وسفهاء الأحلام كذبوا فهلكوا ، ولقد أعان الأسلوب على التشخيص ، « إني أنا النذير العريان » قرر حالته « النذير العريان » في جملة اسمية زادها تأكيدا ضمير الفصل المفيد للقصر ، وإن مع حذف الفعل إغراء (النجاة)

فالظرف خطير لا يسع مزيدا، وحذف جملة الشرط المقدر: إذا كان هذا هو الحق فالنجاة، وتأتي كلمة «أدلجوا» تصور سرعة الانقياد والمبادرة، وبعدها على مهلتهم، تبين الراحة النفسية بعد اجتياز الخطر، وكلمة «صبحهم» بما تحمل من شرفي صباح باكر، ثم «اجتياحهم»، وما فيها من دمار لا أثر له، وهذا التصوير بشحناته العاطفية إنما يبرز دور الرسالة المحمدية ماثلاً للعيون والخواطر قوة في التبشير والإنذار.

والحديث الثالث:

يبرز المعنى في معرض التمثيل في قصة أيضا محصورة بين المشبه أولا، ورد الكلام إليه ثانيا، دفعا بها إلى الوعي وأعماق النفس والغرض: بيان حظوظ الناس من الهدي النبوي حسب همتهم ونشاطهم وهداية الله لهم، وأجزاء الصورة منتزعة من مظاهر كونية وطبيعية متفاعلة، تشد انتباه الناس دوما، فهنا: غيث ينهمر على الأرض سواء، لكن الأرض تختلف في طبيعة تكوينها، ونوع تربتها فيختلف مقدار تجاربها وتعاملها مع الغيث، من أرض منبتة كثيرة الخير، ومن جنادب صخرية منع الإنبات، وإن كانت أمينة في حفظ الماء الذي يفيد الناس في شئونهم، ثم قيعان كثيرة المسارب، لا تنبت كلأ، ولا تمسك ماء، والتمثيل هنا ناطق يرسم نماذج إنسانية حية في كل جيل وقبيل، فمن الناس من يعلم ويجدد ويثري ومنهم الحفظة الأمناء ينقلون العلم لمن بعدهم، ومنهم حثالة البشر يسر لهم العلم لو أرادوا ـ لكنهم أعرضوا عن ميراث النبوة فضلوا وأضلوا، ولابد من هؤلاء لتكتمل قصة الخير والشر وهنا ـ مع الترغيب في إنبال الهدى والعلم ـ تصوير لحقائق إنسانية ثابتة ثبات الحقائق الكونية من غيث وأرض ونبات انتزع منها التمثيل تلاؤما بين الطرفين وتفننا معجبا.

الدنيا وحقيقتها :

١- رأى رسول الله ﷺ مع أصحابه سخلة ميتة ، فقال : أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها ؟ قالوا : من هوانها ألقوها يا رسول الله : «قال فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام :

(١) «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[2]

(٢) «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء»[3]

(٣) ««مالي وللدنيا» ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[4]

(٤) «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بماذا يرجع»[5]

(٥) من حديث أبي سعيد الخدري ـ وجعلنا نلتفت إلى الشمس هل بقي منها شيء ، فقال : ﷺ : «ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه»[6]

(٦) «كن في الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل ، وعد نفسك من أهل القبور»[7]

(٧) من قوله ﷺ لعائشة «إن أردت اللحوق بي فليكفك من الدنيا كزاد الراكب»[8]

(١،٢) التاج الجامع ٥/١٦٠

(٣) المرجع السابق ٥/١٦١

(٤) المرجع السابق ٥/١٧٧

(٥) المرجع السابق ٥/١٦١

(٦) المرجع السابق ٥/٢٩٩

(٧) المرجع السابق ٥/١٥٩

(٨) المرجع السابق ٥/٢٧٤

(٨) «إن هذا المال حلوة خضرة ، من أخذه بحقه ، ووضعه في حقه ، فنعم المعونة هو ـ ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع»[1].

اتسع موضوع الدنيا لكثير من أساليب البيان النبوي ، وكان للتشبيه منها نصيب وقد وجه إلى غرضين :

(١) كشف حقيقة الدنيا ببيان تفاهتها ، وأن الخير فيما هو أهم وهو طاعة الله .

(٢) قرب زوالها باقتراب الساعة المؤذن بالآخرة ، وهي الأهم أيضا .

وتحت الغرض الأول ، وهو التحذير من فتنتها يلتقط البيان النبوي مشبهًا به له طبيعته الخاصة المنفرة ، فالدنيا في هوانها والخروج منها بلا طائل مثل هذه الشاة الميتة المشار إليها ، المسبوقة بالتساؤل عن قيمتها ـ ألقاها تقذراً وهوانًا ، تجسيدا للدنيا وتقبيحا لها وتحذيرا منها .

والدنيا ـ بما يصارع فيها المؤمن هواه ـ سجن يخنق الحرية ، ويكتم الأنفاس ، والدنيا هينة على خالقها لهذا الدليل الواضح ، فلو كانت تساوي في وزنها وقيمتها جناح بعوضة لما منح الكافر منها شيئا ، أما الكافر يمرح في نعيمها متى لا تعدل شيئا ، والدنيا في عدم بقائها ، وسرعة انقضائها مقبل عارض أو شجرة على الطريق ، يقبل المسافر مستظلا تحتها ريثما يستريح ثم يمضي على الطريق ، ومتاع الدنيا قليل ولا موازنة بينه وبين نعيم الآخرة ، إنها لصورة غريبة حقا ، فليمد المرء إصبعه في اليم فهل يرجع منه بشيء ، إنه البلل الضئيل ، فأي موازنة بينه في تفاهته وبين مياه لحبة جبارة .

أما الدنيا كفترة زمنية محدودة ، فلقد مضى من عمرها الأكثر ، ويأتي التمثيل مبينا هذه اللقطة الزمنية ، فالشمس ـ في حديث أبي سعيد ـ تؤذن بالمغيب ولم يبق في اليوم إلا لحظات هي بجانب ما انقضى من ساعات اليوم لا تساوي شيئا وكذلك عمر الدنيا انقضى جله ولم يبق إلا القليل ، والتمثيل هنا مستمد من الواقع المشهود اشتركت فيه الشمس وشعاعها وإيحاءات

---

(١) التاج الجامع ١٦٤/٥

المنظر ، ثم استحضار ما فات من اليوم ، ومراحل شمسه وأحداثه : ليتقرر المعنى وهو قرب الساعة تخويفًا ودفعا إلى المزيد من الصالحات ، والتزهيد هنا وفيما سبق بطريق غير مباشر بإقامة الأدلة ونصب اللوائح عن طريق التمثيل أما ما جاء التزهيد فيه مباشرة في الدنيا فقد حرص على التقاط صور من واقع الناس والحياة نابضة باقية خلعت على التشبيه جدة « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وعد نفسك من أهل القبور » فليكفك من الدنيا كزاد الراكب « فليعد المرء نفسه بمنزلة الغريب ليس له من دار غربته إلاقضاء وطره ثم الفضول إلى آله ، وجاءت الأداة هنا « كان » لسر عجيب ، فالإنسان يعد نفسه غريبا في حياته ، ولو حذفت الأداة لانقلب المعنى وصار : اعتبر نفسك غريبا لا تألف أحدا واعكف على نفسك كالمنبوذ حتى تفيء إلى وطنك ، وليس هذا منطق الإسلام من هنا جاءت الأداة « كان » لتوهم المرء بأنه كالغريب ويصور نفسه بالغريب أو عابر السبيل في عدم الركون إلى دار غربته ، ونرى هنا تدرجا في التشبيهات مبالغة في التزهيد ، فالأول : المشبه به فيه : غريب بالتنكير الموحي ، لكن الغريب قد يقيم قليلا .

فليعد المرء نفسه ـ إن أمكن ـ عابر سبيل هائما لا قرار له في سبيله ولماذا الدوران ، إن النهاية هنا نبصرها تحت أقدامنا ، فليجعل المرء نفسه من أهل القبور حتى يفهم الدنيا على حقيقتها ـ بعد أن وضحت له الغاية ، ويكفيه من الدنيا ما يكفي الغريب وعابر السبيل ، ويكفيه من الدنيا كزاد الراكب (في حديث عائشة) حتى تنطلق قواه الروحية تمجد الله في علاه ، والتمثيل هنا يعتمد نماذج إنسانية لها تجربة وإيحاء وإثارة : الغريب ، وعابر السبيل ، وراكب الطريق بزاد القليل ، ليعطي قوة هائلة في التصوير معتمدا على إثارة الذكريات والانطباعات في نفس المخاطب ، وقد سبق القصد إلى التأثير في الأحاديث التي تكشف عن حقيقة الدنيا .

وقد انتزع التشبيه فيها من مفرد معبر كالشاة الميتة ، وجناح البعوضة والراكب المستظل بالشجرة أو من هيئة يتملاها الخيال مفتونا متأنيا كإدخال

الأصابع في الماء ثم إعمال الفكر في عقد موازنة بين بلل الأصابع في الماء، وهو تمثيل متخيل من أجزاء قوية كالبحر والإنسان أو من منظر طبيعي خاص ساعة الأصيل كل ذلك لتقرير الشبه وترسيبه في الوجدان.

أما الدنيا عند أهلها فهو ما عبر عنه آخر الأحاديث «إن الدنيا حلوة خضرة» لها طعم ولون بهيج زائف، بل هي في الحديث الثاني «جنة» جنة الكافر أما واقعها الغريب الزائل فهو ما نطقت به الأحاديث.

والواضح: ارتكاز البيان النبوي في هذا الغرض على التشبيه التمثيلي في الأغلب وجاء مفردًا كما في زاد الراكب، سجن، جنة، مع المطابقة المؤكدة في الأخيرين: غريب، وعابر سبيل، لكن له معانيه الثانوية ما يدهش ويثير، كما جاءت الأداة لسر بلاغي (كأنك غريب) وسقطت لهذا السر (الدنيا سجن) و «جنة» وردت بعض الأحاديث على أسلوب التشبيه الضمني قصدا للمبالغة، «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء».

الترغيب في العبادات:

(١) الوضوء والصلاة:

١- قال أبو هريرة ﷺ «كيف تعرف أمتك بعد موتك يا رسول الله»؟ قال ﷺ، «أرأيت لو أن رجلا له خيل محجلة، بين ظهري خيل دهم، لا يعرف خيله؟ قالوا: بلى يا رسول الله: قال: فإنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض»(١)

٢- قال ﷺ: «أمني جبريل عند البيت مرتين فصلى الظهر في الأولى منهما حين كان الفيء مثل الشراك»(٢)

٣- قال ﷺ: «رصوا صفوفكم، وقاربوا بينها وحاذوا بين الأعناق فوالذي نفسي بيده إني لأرى الشياطين تدخل من خلل الصفوف كأنها الحذف»(٣)

---

(١) التاج الجامع ١/١٣٤
(٢) المرجع السابق ١/١٤١
(٣) المرجع السابق ٥/٢٦٥

٤- قال ﷺ «أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات أيبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»(١)

٥- قال ﷺ «رأس الإسلام وعموده الصلاة»(٢)

٦- قال ﷺ «الصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء»(٣)

والأحاديث دارت حول الوضوء ، وأثره ، وبيان وقت الظهر والدعوة إلى تسوية الصفوف والتحام المناكب في الصلاة ، ثم الترغيب في الصلاة كثمرة لما تقدم وقد تنوع التشبيه بين مفرد وهو الأكثر ، وتمثيل في حديث الوضوء والنهر وكل أدى دوره .

والحديث الأول يربط بين مشهدين أحدهما في الدنيا والثاني في الآخرة ، والأول من الواقع العربي المشاهد ، خيل غر محجلة بين خيل دهم وهم دلالة على الوضوح المشرق والظهور المشرف المحبوب لاسيما أن الغرة في وجهها سمة والبياض في أرجلها زينة ظاهرة ، ونقل هذه الصورة وتصدير البيان بها على أنها مشبه به استشرافًا للسامع ، وتشويقا إلى المشبه الذي كان مؤخرا تأكيدا له ، وترتيبا حدثيًا وزمنيًا ، إنهم المؤمنون منيرة وجوههم ومواضع الوضوء منهم ، فهم متميزون عن العصاة ، سود الوجوه والأعضاء ، والترغيب أولا في الوضوء ببيان آثاره والصلاة داخلة ضمنا لأنه مقدمتها .

وبيان الوقت في حديث «جبريل» حين تميل الشمس قليلا عن كبد السماء نجد الظل قريبا من الأشياء يكاد يلتصق بها ، فيكون طويلا رفيعًا أسود كالسير من سيور النعل ، والعجب من هذا التشبيه ، فهناك الضآلة ، والرفع مع الطول والتقارب في اللون ، وفوق ذلك فالظل ينتقل ببطء لا يدرك فكأنه ثابت ، وشراك النعل على الأرض لا يريم ، واللفظة جاءت للظل في حالة خاصة حين يشبه هذا الشراك القريب منه .

---

(١) التاج الجامع ١٣٤/١

(٢) المرجع السابق ٥٠/٢

(٣) المرجع السابق ٧٨/١

أما الدعوة إلى التصاق الصفوف في الصلاة فقد جاء الترغيب مؤكدا دافعا إليها فهناك الشياطين تتخلل الفرج ، والمشبه مكروه في الطباع ، وهي تشبه صورة أشد غرابة سوداء صغيرة عجيبة الشكل مثل صغار الغنم السود الشيء تكثر في اليمن ، ولا يخفى أثر هذه الصورة المخيفة وهي متوهمة عند المخاطبين مع تقريبها بحيوان صحراوي معروف لهم ، محققة عند نبي الله ﷺ معجزة ، ويكفي تصورها ليجعل المؤمن ملتحما مع أخيه لا يدع ثقب إبرة للشيطان مع التنفير الشديد من ترك الفرج بين صفوفهم .

وفي حديث « النهر » نجد التمثيل مركبا ، فهو نهر لكل مصل ، ملتصق ببابه ، وللنهر وضع جغرافي خاص ليس في صحراء العرب ، ثم إن المرء لا يتوضأ منه بل يغتسل خمس مرات ، وقد أعان تركيب العبارة على تحقيق الصورة ، فجاء الاستفهام مقررا مثيرا ، مع وصف النهر بشدة القرب «باب أحدكم» ملاصقا له ، وجاء الاستفهام الثاني بمعنى النفي تأكيدا «هل يبقى من درنه شيء؟» ويؤكده الجواب : لا ، حتى هنا سبق المشبه به مقررا مرسوما بدقة في أعماق السامعين ، ويبلغ الشوق مداه إلى ما يأتي بعد ؟ ما المقصود بهذا التمثيل وما الغاية من هذا الكلام؟ فإذا جاء المشبه «الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا» ثبت المعنى ونلاحظ عكس التشبيه مبالغة ، كأن الصلاة أصل يقاس عليها النهر في محو ما خبث وإنقاء المرء وتطهيره وأهمية التمثيل : اختيار النهر بالذات في بيئة تعتمد على الغيث وتعرف قيمة الماء الذي هو حياة الصحراوي - والصلاة أيضا كهذا العمود الذي يقيم خيمة البدوي في الخطورة والأهمية والصلاة نور ، دلالة على أثرها في القلب والروح .

بعض الفرائض : « الصوم والحج والصدقة »

قال رسول الله ﷺ « الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار »(١)

---

(١) التاج الجامع ٣/ ٥٠

وقال ﷺ «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينقيان الذنوب كما ينقي الكير خبث الحديد والذهب والفضة»[1]

وقال ﷺ : «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[2] والصوم هنا وقاية وحماية من كل سوء بهذا العموم الذي يعطيه المشبه به وإن كان مفردا ليشمل كل أنواع الوقاية من الأذى الحسي والمعنوي الخارجي والداخلي البشري وغير البشري دلالة على عظمة الصوم وأثره في درء الذنوب والأخطاء - والصدقة - فرضا أو نافلة - تذهب الذنوب بسرعة وشدة كإطفاء الماء النار ، وكأن الصدقة والذنوب ضدان كالماء والنار يذهب حرارتها بهذا التصوير الحسي الذي يقوي المعنى ويثير الخيال ، ترغيبا في الصدقة .

والحج جاء في صورتين لهدفين مختلفين ، فالحج والعمرة بما فيهما من مشاق مادية وجسمية ومتاعب نفسية ، ينقيان المرء من أخطائه كهذا الكير ، تؤجج النيران حتى تذيب المعادن وتنقي خبثها وتظهر نقاءها ، تمثيلا حسيًا لهذه المشاق ، ثم لأثرها في غفران الذنوب ، ويخيل إليّ أن ذكر ثلاثة معادن مختلفة لبيان الطبائع البشرية ودرجة اكتسابها الذنوب ، فالحديد أولا لكثرة خبثه واحتياجه كمية هائلة من النار حتى يذوب ، والذهب لقرب لونه من النار وشبه لونه بالحديد مع أنه في الذوبان على النقيض ، بينما ختم بالفضة كنهاية بيضاء سارة باللون والبريق .

والثاني يمثل الحاج لا يرتكب إثما ولا ذنبا يرجع مغفورا له بشبه نفسه هو يوم ولدته أمه بريئًا لا يعرف إثما ، والتمثيل بالطفولة ونقائها له أثره في الإقبال على الحج وكأنه ميلاد ثان ، وقد اعتمد التشبيه على حقائق متعارفة من واقع الناس وآلاتهم وعملهم ، أو من واقع المرء نفسه في طفولته ؛ ولذا آثره في الترغيب .

---

(١) التاج الجامع ١٠٧/٢

(٢) المرجع السابق ١٠٦/٢

الموازنات :

وقد نجد موازنات بين أصناف متقابلة من البشر لهم صفات متضادة أو الجمع بين صفات كذلك وحدة في التصوير وتأكيد الحسن بالقبيح ، وهي عملية تشغل الحس والخيال ، وتقوي الغرض الجامع بين الترغيب والترهيب .

قال رسول الله ﷺ :

(١) «مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميله ، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاغ ، ومثل الكافر كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد»[(١)]

(٢) قال ﷺ : «إنما مثل الجليس الصالح ، والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة»[(٢)]

(٣) قال ﷺ : «مثل البخيل والمتصدق مثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما ، إذا هم المتصدق بصدقة اتسعت عليه حتى تعفي أثره ، وإذا هم البخيل بصدقة تقلصت عليه ، وانضمت يداه إلى تراقيه ، وانضمت كل حلقة إلى صاحبتها ، قال : فسمعت رسول الله ﷺ يقول : فيجهد أن يوسعها فلا يستطيع»[(٣)]

وهذه الأحاديث تمثل طريقة من طرائق التعبير في البيان النبوي معتمدة التمثيل لإظهارها ، وهي طريقة تدع المجال للخيال يهيم في أودية التصوير ، وللعقل فرصة التدبر والموازنة والحكم ، فكأن هنا غرضين مرة واحدة ، تقوية الإقبال ، أو التنفير وتوضيح المعنى وتأكيده ، والثاني إشباع الحاسة الفنية بالتأثير الوجداني وهو في خدمة الغرض الأول .

---

(١) التاج الجامع ١٨٦/٥

(٢) المرجع السابق ٨٢/٥

(٣) المرجع السابق ٢٢١/٥

والحديث الأول موازنة بين حال المؤمن والكافر في الدنيا وموقفهما من عثرات الزمان وخطوات البلاء ، فالمؤمن بين بلاء وعافية تربية له وتنقية ، والظالم يملي له ربه حتى يأخذه أخذة واحدة ، ولقد كان التمثيل مسندا من عالم النبات المرئي تصويرا للمعنوي بالمحسوس وهي صورة تتكرر على البصر ، فهنا زرع واهن تهب الريح قوية فتهزه وتميله حتى إذا صارت رخاء عاد مستقيما وهو دوما بين ريح ونسيم ، أما الكافر فهناك شجرة الأرز الغليظة العتيدة لا تنال منها الرياح العواتي حتى إذا حان حينها هبت عاصفة فقصفتها ، والشجرة هنا توحي بسوء المصير يتناولها الإنسان تمزيقا بآلاته وتحريقا بناره، فالمشبه به بين حال المشبه بتصوير مشع مؤثر قال العلوي رحمه الله «جهة التشبيه هو أنه أراد أن المؤمن يواقع الذنب فيتوب منه ، ويسترجع مرة بعد أخرى والكافر كالأرزة يعني أنه إذا هفا في الذنب لم يتذكر ولم يسترجع ، فهو كالأرزة إذا انجعفت لم تقم أبدا ويحتمل أن يكون مراده أنه لا يتوب إلا عند الموت بحيث لا يقوم ولا تنفعه التوبة كالأرزة إذا انجعفت لا يرجى لها استقامة بحال»(١)

وهذا بعيد فالمراد أن المؤمن كثير البلاء في دنياه بدليل قوله في الحديث «ولا يزال المرء يصيبه البلاء» ، تأكيدا لوجه الشبه المحذوف ، وهذا ما اختاره صاحب العقد الفريد(٢) وصاحب التاج(٣)

والحديث الثاني يرغب في اختيار الصداقة الحق في الله ويحذر من مجالسة المفسدين ، ومصادقتهم ، لأثر كل منهما في الدين والخلق والسلوك ، وقد ذكر المشبهين مقدمين ، ثم أتبعهما بالمشبه به مفصلا مصورا ، كما تلمح الانتقاء الخاص للمشبه به فالمسك محبوب خفيف ممتع في كل حالاته التي استقصاها

---

(١) الطراز ٢٥٧/١ ، ٢٥٨

(٢) انظر : العقد الفريد ٦٥/٣ تحقيق أحمد أمين وآخرين .

(٣) انظر : التاج الجامع هامش ١٨٦/٥

المشبه ببراعة ، وكلها نافع مفيد ، ونافخ الكير ـ في جانب الجليس السوء منفر عنده النار وشررها المتطاير ، ودخان الفحم الخانق ، والوجوه المغبرة والقذارة المتناثرة، والأثر المادي: حرق الثياب أو حتى الرائحة وفيها الانقباض والسوء، ويوازن الخيال موسعا دائرة التصوير ويحكم العقل على ضوئه ولذا لم يعد الحديث إلى ذكر المشبه مرة ثانية ، وبهذا يتحقق الغرض من الترغيب والتحذير .

وفي حديث البخيل والمتصدق : نجد طبيعة الشح وطبيعة السماحة وهما معنويتان صورتا بمحسوس ، والمحسوس هنا خاص في وضع خاص أعني تركيبا تخييليًا مواده في الواقع ، إلا أن الحديث يشكل هذه المواد بمرونة بارعة كمادة الحديد القوية الصلبة ، ويلعب التمثيل دوره فيعطيها التمدد والمرونة في جانب المتصدق والتقلص والانكماش في جانب البخيل ، وقد سبق الرافعي رحمه الله إلى لمحات عدة في هذا الحديث ذي الفن العجيب ، فهذا الحديد يراد به طبيعة الخير والرحمة وهي أشد الطبائع صلابة وجمودًا ـ ومع ذلك يبسط منها السخاء فلا تزال تمتد حتى يكون الكمال ، كمال الخير في النفس الكريمة ، فكأن السخاء رياضة عملية تطوع الحديد وفيها معاناة القوة في الصراع أما الشح فيدع تلك الطبيعة قوية جامدة لا تمتد ولا تلين ، وقد جعل الجبة من الثدي إلى التراقي وهذا من أبدع ما في الحديث ؛ لأن كل إنسان فهو منفق على ضروراته يستوي الكريم في ذلك والبخيل ، والتفاوت فيما زاد من وراء هذا الحد ، فالكريم يبسط بسطه الإنساني والبخيل يريد فقط ، فإذا أراد تحقيق إرادته قاومته طبيعته فلزقت كل حلقة مكانها ، وهكذا تتوجه الحجة ، وتدق الفلسفة وهي في أظهر البيان وأوضحه وهو وصف لو نقل إلى كل لغات الأرض لزادتها جميعًا ، ولكأن في جميعها كالإنسان نفسه لا يختلف تركيبه في بلاد الزنج أو بلاد شكسبير(١).

---

(١) انظر : وحي القلم ، الرافعي ٣/١٣ ، ١٤

وفي كل ما سبق تجد التشبيه التمثيلي وضح المعنى وصوره ، وأوجزه وقد جاء المشبه به في الجميع مفصلا مصورا مستوفي كأنه الأصل وكأن المشبه ترك وضرب عنه صفحا ، وتسمى هذه الحالة «ترشيح التشبيه» وهي شائعة في البيان النبوي ، يقول دكتور علي الجندي فيما ذكر فيه وصف المشبه به وقد سمى الأستاذ جبر ضوابط هذا الضرب ترشيح التشبيه ، وهو أن يبدأ الكاتب أو الشاعر بذكر طرفي التشبيه ثم يوهم تثني أحدهما وأكثر ما يكون المشبه ، ويأخذ في ذكر أحوال المشبه به كأنه ليس في الكلام غيره إلا أن هذه الأحوال يلحظ العقل عند ذكرها أن لها ما يقابلها في المشبه وقد يكون من الكاتب في أثناء كلامه هذا أن يعود فيذكر المشبه أو يلمح إليه[1] ، وذكر من فوائده الاختصار والاقتصار على انتباه السامع[2] وهذا كلام حسن لكنه لو قال : ثم يوهم تناسي المشبه لكان أدق وأنسب للترشيح ؛ لأن الترشيح معناه القوة ، وذكر أوصاف المشبه دون المشبه به مما يجعل التشبيه قريبا غير قوي ، والأحرى أن يسمى «تجريد التشبيه» .

الموازنة بين موصوفين :

وقد نجد اقترانا بين موصوفين متفاوتين فضلا ، ويأتي التمثيل لبيان حالها ، ومقدار تفاوتهما إيماءً إلى تفضيل أحدهما ، والترغيب في صفته ، كقوله ﷺ :

«فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب»[3]

«فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»[4]

فهنا موازنة بين فاضلين العالم والعابد ، والعالم أفضل لأنه يقوم بمهمة الرسل ، ولقد تفاوت الفضل بشكل هائل وضحه التمثيل وهو دليل قياسي

---

(١) فن التشبيه للدكتور علي الجندي ، ١/١٨٦، ١٨٧

(٢) المرجع السابق ١٨٧ ، ١٨٨

(٣) التاج الجامع ١/٦٤

(٤) المرجع السابق ١/٦٣

(٥) تطلق الكواكب على النجوم عند العرب وقد فرق العلم الحديث بينهما فالنجم مشع ملتهب والكوكب يمتص الحرارة ثم يعكسها .

محسوس فكيف نقرن الكواكب بأنوارها الخافتة(٥) على القمر الذي يهدي الناس ويهزم الظلماء ويجعل الليل نهارا ، بل كيف تقرن بين أقل الصحابة فضلا وعلما وبين سيد الخلق ، وإمام البشر وحبيب الله ﷺ ، إن هذا التمثيل يشبه البراهين الرياضية التي لا تقبل مراء ولا جدلا ، وفي هذا دلالة على فضل العلم والترغيب فيه ، لا يقلل هذا من قدر العباد ألم يمثلوا بالكواكب ، وبأقل الصحابة الذين مثلوا بالنجوم ، ونلاحظ اقتناص التشبيه من المناظر الكونية ومن الجمع بين المتكلم عليه الصلاة والسلام ونوع من المخاطبين إشراكا في الحكم تقريرا وتثبيتًا وقوة في الترغيب .

الترغيب في صفات طيبة :

١- الصبر :

قال ﷺ «يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر»(١)

قال ﷺ «العبادة في الهرج كهجرة إليَّ»(٢)

عن أم العلاء قالت : عادني النبي ﷺ وأنا مريضة فقال «أبشري يا أم العلاء فإن مرض المسلم يذهب الله به خطاياه كما تذهب النار خبث الذهب والفضة»(٣)

قال ﷺ لأم السائب «لا تسبي الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد»(٤)

وقد تنوع الصبر هنا إلى صبر على العبادة وتأدية شعائر الدين ، وإلى صبر على البلاء في الدنيا .

وفي الأول : يبين أن الإسلام في آخر الزمان سيكون غريبا وقل من تمسك بدينه ، وهذا المتمسك منبوذ ، هو إذن محتاج إلى صبر وجهاد وضبط للنفس ،

(١، ٢) التاج الجامع ٥/٣٣٨ ٥/٣٣٨ (٣) المرجع السابق ١/٣٤٧

(٤) المرجع السابق ٣/٢٠٠

ولا يؤدي ذلك إلا لمحة من إلهام النبوة إنه كالقابض على الجمر ، وإنها لصورة غريبة مؤثرة كيف يتحمل الإنسان الجمر الملتهب مقبوضا عليه قبضا ، أى ألم رهيب يترتب عليه ؟ والتشبيه هنا يقرر حال المشبه على جهة التمكين بإبراز المشبه (الصابر) في صورة أقوى وأيسر متخيلة محسوسة كالقابض على الجمر ترغيبا في هذا الصبر والجهاد الشاق .

والمشبه به في الثاني الهجرة إلى رسول الله ﷺ في مدينته الطاهرة ، وقد كان هذا أمرا عظيما فيه مشقة ومخاطرة للمهاجرين الأوائل ، ثم كانت لهم أعلى المنازل برضا الله ورسوله ، فهو أمر محبوب فيه عناء وقد صور به العبادة والصبر عليها زمان الفتن المظلمة وفي ذلك ما يؤكد الترغيب فيه .

أما الصبر على المرض أو الحمى التي تذهب الخطايا ، وهذا شيء يدرك بالفكر ـ فقد شبهه بالنار تذهب الشوائب والخبث من المعادن ، وقد صرح بالنار والذهب والفضة في الحديث الأول ـ وبالكير والحديد فقط في الثاني ، ولعل ذلك لأن الأول فيه بشارة بالمغفرة وتأكيد لها ، أبشري يا أم العلاء ، والكير لا يناسب البشارة ، فاقتصر على النار تصويرا للمرض وأتى بالذهب والفضة تزيينًا وتصويرا لأم العلاء إدخالا للسرور عليها ودفعا إلى الصبر المفضي إلى النتيجة المرضية وهذا ما يناسب جو البشارة . .

أما أم السائب فقد ضجرت من الحمى ، وكانت تزفزف حتى لعنت الحمى فبين الهدي النبوي بأن الحمى قد لا يقبلها المرء حقا كالكير في منظره ، ولكن لها أثر طيب وقوي في محو الذنوب كالكير الذي يذيب أقوى المعادن صلابة وهو الحديد ، وتنفي خبثه وينقيه من شوائبه ، فالحديث يلمح منه المبالغة في تكفير الحمى للذنوب ، فالمقامان مختلفان والغرض واحد هو الترغيب في الصبر على المرض ببيان أثره .

٢- الإحسان :

قال رسول الله ﷺ :

« الوالد أوسط أبواب الجنة فإن شئت فاصنع ذلك الباب أو احفظه »[(١)]

« الخالة بمنزلة الوالدة »[(٢)]

« العم صنو الوالد »[(٣)]

« والساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل »[(٤)]

« من بلى من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترا من النار »[(٥)] من حديث جبريل ، قال : « فأخبرني عن الإحسان :قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[(٦)]

وللإحسان هنا مفهومان : البر والإحسان إلى ذوي القربى والدعوة إليه مستفيضة في السنة ، والإحسان في العبادة بمعنى كمال الإخلاص فيها والصلة بينهما واضحة ، ونلاحظ : سقوط أداة التشبيه في أربعة منها لتوفير جو المبالغة الملائم للترغيب ، فالوالد أبا أو أما يشبه بابا من أوسط أبواب الجنة بل هو الباب نفسه فمن أحسن إليهما في الدنيا دخل هذا الباب فهما طريق الجنة بل معبر إلى الجنة ، وسقوط الأداة يؤكده المعنى ، والأم برها وجزاؤه متعالم فكذلك الخالة بمنزلتها ، لزوم برها ، والعم صنو الوالد فهما كنخلتين متشابهتين فالبر إليه مؤكد كالبر للوالد ، وسقوط الأداة لإلحاق المشبه بالمشبه به ـ فيما سبق ـ مبالغة في الترغيب .

والبنات ضعيفات الجاه ، كسيرات الجناح فمن توفر على تربيتهن ، والإحسان إليهن كن له حجابا واقيا من النار ، إن الخيال ليتصور ما جسمه

(١-٣) التاج الجامع ٥/٦

(٤) المرجع السابق ٥/١٤

(٥) المرجع السابق ٥/٧

(٦) المرجع السابق ١/٢٥

التشبيه من نار تأكل نفسها ثم هناك ستر كثيف بل حجاب منيع يدفعها عن المحسن ، والأداة هنا تضعف من قيمة التشبيه ، ولذا سقطت لتوفر جو المبالغة والترغيب بل والترهيب من إهمالهن وإيذائهن .

أما الساعي على الأرملة التي فقدت عائلها فله درجة عظيمة كفاء نبله وبره ولقد جاء المشبه به من المتعارف جزاؤه في الشريعة إنه كهذا المجاهد الذي يبذل روحه في سبيل الله أو كهذا الذي زهد في الدنيا ابتغاء رضوان الله فهو صوام قوام والمشبه به أقوى من المشبه في باب الأجرة ورفع المشبه به تقوية له ، وإلحاقا به ، ولو سقطت الأداة لاختلطت الأمور ، ونزلت درجة المجاهد عن مكانتها واختلطت بما هو أقل منها ، والجهاد في سبيل الله والانقطاع إلى الله آفاق لا تبلغ بيسر ، فليبقيا في مكانهما شامخين ، وليلحق بهما الأقل تمثيلا ، دقة في التعبير وصدقا في التشبيه ورفعا لشأن الطرفين جميعًا ، وهنا ترغيب في السعي على الأرملة والمسكين ثم ترغيب في الجهاد والصوم وقيام الليل لقياس الخيرات عليهما .

وكذلك من المستحيل سقوط الأداة في حديث «جبريل» ففيه الدعوة إلى الإخلاص والتفاني في عبادة الله سبحانه ولا أحفز للمرء من تصويره بمن يرى المعبود يناجيه ويناديه ، وقد جاءت «كأن» هنا قصدا لأن فيها مسحة من الظن فهو المتيقن ورؤية الله سبحانه مستحيلة في الدنيا ولكن تشبيه المتعبد في مناداته بنفسه رائيًا المعبود وهو سبحانه من هو عظمة وجلالاً يعطي للتفاني في العبادة عمقًا واتساعًا وتطويقا بما لا تسعف تصف به الألفاظ ثم جاء التذييل لقطع التوهم في رؤيته سبحانه وأن الله هو الذي يرى مكان العابد يرى على التوهم ويرى على الحقيقة ، وهذا يمكن للترغيب إخلاصا وفناء في عبادته .

التعاطف بين المسلمين :

قال رسول الله ﷺ :

(١) «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[(١)]

(٢) «المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله وإن اشتكى رأسه اشتكى كله»[(٢)]

(٣) «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[(٣)]

(٤) «المؤمن مرآة أخيه ، وفي رواية إن أحدكم مرآة أخيه»[(٤)]

ومجموعة التعاطف ينبع التمثيل فيها من مشكاة واحدة توضح قوه الترابط وسرعة التأثر والأثر وشدة التماسك والحب . .

والتمثيل الملتقط لا يبعد عن العين إنه الجسم الإنساني في حالة معهودة حالة الألم والمرض ولقد افترق التشبيه الأول في بيان نوع التجاوب بين الجسم والعضو المريض إنه السهر والحمى ، كما تميز الثاني بتعيين بعض الأعضاء «العين ، والرأس» دلالة على أهمية الفرد في المجتمع وأنه بمكان عزيز ، وفي الحديثين تمثيل لواقع يجب أن يكون بين مؤمنين وحد بينهم رباط إلهي كريم ، وقد جاء في صورة الحقيقة المسلم بها والتمثيل يدعو إلى تحقيق المثل الكامل .

والحديث الثالث تشبيه المؤمن للمؤمن في المساندة والمعاضدة بالبنيان المتشابك اللبنات يقاوم جسمه عوامل الطبيعة ، ولا يبعد المشبه به هنا كثيرا عن سابقيه فالجسد بنيان إلهي أيضا وعلى كل فقد صور بحقيقة ملموسة لا تنقص وذلك أدل على الترغيب في الوحدة والرحمة .

أما حديث المرآة ، فالطرفان حسيان ، والوجه عقلي إذ جمع بين المؤمن والمرآة في صفة معقولة وهي أن المؤمن ينصح أخاه ويريه الحسن من القبيح

(١-٣) التاج الجامع ٥/١٨ — (٤) المرجع السابق ٥/٥٤

كما ترى المرآة الناظر فيها ما يكون بوجهه من الحسن وخلافه[1] وانتزاع المرآة شبها للمؤمن كشف لأعماقه النقية التي تتساوى مع ظاهره ، فالمرء يرى نفسه بلا كذب أو مخاتلة ، دعوة إلى صدق المناصحة ، وصفاء السريرة .

التوكل على الله تعالى ، والفطرة :

قال رسول الله ﷺ :

« لو أنكم توكلتم على الله حق توكله ، لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا »[2]

« ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تجدون فيها من جدعاء »[3]

والتفويض إلى الله واللجوء إليه في الملمات فطرة في النفس ونلاحظ أن التمثيل هنا وفر المبالغة الكاملة بالقياس على مشهد محسوس من البيئة متحرك واسع الدلالة ، فالتوكل الكامل على الله ييسر أسباب الرزق ، وهذه دعوى ودليلها ما نرى : هذه الطيور التي تنطلق مبكرة على وجهها تلتمس رزقها جائعة وتنقضي ساعات النهار بين بحث ، وارتزاق حتى تروح آخره مليئة الحواصل ، وهيئة المشبه به فيها حركة ينشط لها الخيال ثم فيه إيحاء بأن السعي بعض التوكل على الله .

والثاني فيه أن التدين الحقيقي والإقرار بوحدانية الله فطرة إنسانية ، لكن للبيئة أثرها التي تحولها نحوا شاذا والمرء ابن والديه وبيئته ، والدليل هذه الصورة التي لا تنكر : فالبهيمة نتاجها صورة كاملة منها ليس بها جدع أونقص ، وللبلاغة النبوية دقتها النافذة في التصوير ، فالطير في الأول تميل للضعف الكامل ، ومع ذلك : الرزق الوفير والطير محبوب فيه خفة ونشاط ، إشارة إلى

---

(١) انظر : المجازات النبوية للشريف الرضي ص٣٩، وأسرار البلاغة للجرجاني ص٢٠

(٢) التاج الجامع : ٥/٢٥٥

(٣) المرجع السابق ٥/ ١٩٦

رزق المتوكل ، وقد رزق الأضعف منه ، وجثا له على السعي أيضا ، والبهيمة بالذات بما فيها من حيوانية ، وما يدور حولها أنسب بأولئك الذين يشركون مع الله سواه وبأبنائهم الذين طبعوا على كفرهم فهم قطيع من الحيوان منه الكبير ومنه الصغير تنفيرا من حالهم مع تقرير حقيقة أن التدين فطرة وأن للبيئة أثرها في إنمائها أو قتلها إلا من عصم الله .

ندرة المؤمن الكامل :

قال ﷺ « تجدون الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة »[1].

« يذهب الصالحون الأول فالأول ويبقى حفالة كحفالة الشعير أو التمر لا يباليهم الله باله »[2]

والأول فهم منه « ابن قتيبة » معنى المساواة فقال : وإذا كانت الإبل مائة ليس فيها راحلة تشابهت في المناظر ، لأن الراحلة تتميز بالتمام وحسن النظر ، فأراد أنهم سواء في الأحكام وفي القصاص ، ليس للشريف فضل على غيره .

وهذا مثل قوله ﷺ : « الناس سواء كأسنان المشط » [3]

والرأي المقابل وهو ندرة المؤمن الصالح الزاهد نجده عند أبي السعادات مجد الدين ابن الأثير في « نهاية الأثر » قال : يعني أن المرضي المنتخب من الناس في عزة وجوده كالمنتخب من الإبل القوي على الأحمال والأسفار ، الذي لا يوجد في كثير من الإبل ، وحكى عن الأزهري قوله « أي أن الكامل في الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة قليل كقلة الراحلة في الإبل ، والراحلة هي البعير القوي في الأسفار والأحمال الخلق الحسن المنظر ، ويقع على الذكر والأنثى والهاء فيه للمبالغة »[4]

---

(١) التاج الجامع : ٥/٧٠

(٢) المرجع السابق ٥/١٧٣

(٣) تأويل مشكل القرآن ٤٣٣

(٤) انظر : النهاية في غريب الحديث ، مجد الدين أبو السعادات ١/١٦

وهو ما ارتضاه السيد رشيد رضا في تعليقه على الحديث في «أسرار البلاغة» قال: اختلفوا فيه على أقوال ـ قال النووي أجودها: «إن المرضي الأحوال الكامل من الناس قليل جدا كقلة الراحلة في الإبل»[1]

والحديث تشبيه تمثيلي ملتقط من واقع البيئة العربية الخبيرة بالأسفار وانتخاب الإبل ثم إنه حقيقة معترف بها فهو دليل على وقوع المشبه بالقياس مع التصوير الحسي البارع، وإدخال المخاطبين في تكوين الصورة (تجدون) والإيجاز البليغ.

ومع كونه تصويرا لحقيقة الخير والشر يدعو إلى الكمال والتحلي بعظيم الصفات، وهذه القضية «ندرة المؤمن الكامل» قد يلقي عليها الحديث التالي بعض الأضواء مبينًا بعض ـ أسبابها بموت الصالحين تعجيلا بخيارهم تكريما وإسراعا بالجزاء، وتبقى بقية لا خير فيها، والتفاهة وقلة الفناء من الصفات المعنوية التي ظهرت في معرض التشبيه: الحسي المفرد، ولكنه موحٍ إذ المشبه به تقع الأنظار عليه دائما في البيئة العربية مبتذلها تافها لا يلقى اهتماما، فإذا تصافر الناس وانتزع الخير منهم فأي فضل لهم، إنهم كهذه الحفالة، ويأتي التذييل مؤكدا لغرض التشبيه لا يباليهم الله بالة فتصل المبالغة مداها.

التوبة:

وقد جاء من التمثيل النبوي هذه القصة دعوة إليها:

قال رسول الله ﷺ:

«لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فليس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد يأس من راحلته،فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح»[2]

---

(١) انظر: أسرار البلاغة بهامش ص ٨٣

(٢) التاج الجامع: ١٥٠/٥

وقد لبس التمثيل المعنى وخرج في قصة سريعة الأحداث متراصة الحلقات متتابعة العبارات تشد النفوس إليها في لهفة مع تصعيد المعاني المستمدة من البيئة .

ويمكن متابعة الأحداث هكذا :

(١) مسافر على راحلة في صحراء موحشة عليها متاعه وزاده .

(٢) انفلات الراحلة والبحث عنها عبثا ، وبلوغ اليأس مداه ، الاضطجاع تحت شجرة محفوفا باليأس مكدراً بالهموم خائفا من آت مخيف إنه الاستسلام للموت جوعا .

(٣) بهذا يصل الحدث إلى قمته ويبحث الخيال عن حل لهذه العقدة الفنية المثيرة، ويتابع المسافر في رحمة وتحزن، ويأتي البيان بالحل المفاجئ : إذا هو بها قائمة عنده ، حل غير متوقع يضطرب معه الخيال والمسافر أيضا ، وتتزلزل نفسه ، إنه يقفز تلقائيا ليأخذ بزمامها ، ثم ينطلق لسانه ولكن شعوره مازال يغلي إنه يخطئ حتى فيما لا يخطأ فيه ، إنه يريد أن يشكر ربه وحده الذي أنقذه ، وتنقلب الألفاظ لوقع المفاجأة «اللهم أنت عبدى وأنا ربك» ولكنه غلط محبب ، إن الحديث يعلق بمرح على قصة بدأت بالكرب وانتهت بالفرج : «أخطأ من شدة الفرح» ولا يخفى أن الخيال لا ينسى في انطلاقه مع القصة مراحل التوبة وتتابعها ، فالله يرضى عن عبده التائب بعد قطعه في الذنوب أشواطا ، وفي هذا ترغيب في التوبة بهذه القصة الفنية الغنية التي تمثل عفو الله ورضوانه العظيم لمن تاب وأناب .

حب الحكمة :

قال رسول الله ﷺ :

«الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها»[1]

---

(١) التاج الجامع ٦٤/١

والطرفان مفردان لكن الوجه مركب عقلي وله دلالات جمة :

(١) وصف المؤمن بالبحث عن المفيد النافع من العلم ، وتصوير الحكمة بأنها ضالته يبين قوة البحث وشدة التلفت والتلهف ، وتخصيص حياته في السؤال عنها وطلبها دون التفات للبراق من زائف الحياة .

(٢) حب المؤمن للعلم ، وسعادته به كما يسعد من وجد ضالته .

(٣) اختصاص الحكمة والعلم بالمؤمن دون غيره ، فحيث وجدها فهو أحق بها .

والعجيب : الجمع بين هذين الطرفين البعيدين ، فأحدهما من عالم المعقولات ، والآخر من وادي المحسوسات الذي له انطباع في النفس البشرية .

النوع الثاني من الصفات : الصفات السيئة

وقد سار التشبيه مسارين :

(١) تصور نماذج إنسانية تخلقت بهذه الصفات فظهرت آثارها واضحة منفرة دون تعليق عليها .

(٢) تصوير الصفات وقد تسبق بالتحذير مبالغة في التنكير .

(١) النفاق :

١- « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين ، تعير هذه مرة وإلى هذه مرة »[1]

٢- « يخرج في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين يلبسون للناس جلود الضأن من اللبن وألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب »[2]

٣- « من صفات الخوارج « يقرأون القرآن لايجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، ينظر إلى نصله فلا يوجد منه شيء ،

---

(١) التاج الجامع ٤/٢٦٤ (٢) المرجع السابق ٥/٢٠٣

ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد منه شيء، ثم ينظر إلى نضيبه فلا يوجد منه شيء ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء سبق الفرث والدم»[1]

والأول تشبيه مركب تمثيلي يفضح أعماق المنافق فهو لا يقر على قرار ولا يعزم على رأي، وإنما يتوزع بين ظاهره وباطنه، وهذا شيء معنوى خرج في هذه الصورة المتحركة، شاة حائرة في تردد مستمر وتنتقل دائماً بين قطيعين من الأغنام، ويثبت هذا التشبيه للمشبه صفتين:

١- تردد المنافق بهذا التصوير، وقد ورد تصويره في حديث آخر بأنه ذو الوجهين..

٢- الحيرة والاحتقار وقد وصف بالشاة العائرة بالاسم والصفة، والشاة مثل للهوان دلالة على ثبوت التردد في الأعماق ثم التعبير بالفعل «تعير» المعبر عن التردد والرجوع والتعثر وقد أرهقته الحركة وعذبه النفاق، وهذا التصوير يدع الخيال يتابع بشغف وسخرية هذا التردد المستمر إلى ما لا نهاية، فهذا النموذج موجود ما وجدت الحياة، ولون آخر من المنافقين آخر الزمان إنهم أكثر دهاء: «ألسنتهم أحلى من السكر»، الطرفان حسيان أن والوجه عقلي والمراد وصف الكلام بالقبول والإحسان كالسكر بل أحلى بهذا التحديد «وقلوبهم قلوب الذئاب»، في «الذئاب» في الشراسة والغدر والوحشية بهذا التصوير الناقد الذي يبعث الرعب والنفور والتقزز، وبضم التشبيهين يخرج الموصوف وهو المنافق مع حقيقته بين ظاهره المقبول وما زاد المظلم الغادر ولا يخفى أن المجاز المرسل أعني «ألسنتهم»، وأراد كلامهم قوى الصورة وزاد النفور.

والخوارج وهم شعبة من المنافقين يؤدون شعائر الدين في الظاهر ولكن قلوبهم ميتة، فالقرآن لا يجاوز حلوقهم إلى قلوبهم فيطهرها، وقد نبه

---

(١) التاج الجامع ٣١٣/٥ ـ والرصاف: مدخل الفصل من السهم، والنضى كغنى: القدح الذي يرمي به عن القوس، والقذذ: جمع قذف: يبس السهم.

خروجهم من الدين ـ دون تـأثر بهديه ـ بخـروج السـهم مـن الرمية وتجـاوزه الغرض دون أن يترك أثرا ونلاحظ هنا ـ تتبع المشبه به بصبر وتؤدة فهنـا بحـث وحركة يتابعها خيال المتلقي في شوق ابتداء من النضـل ثـم الرصـاف ، ثـم في النفي ثم في القذذ حتى إذا تأكد الرامى عدم الإصابة اقتنع بهذه الحقيقـة : سبق الفرث والدم ، وهذا الصبر في التصوير والإلمام بكـل دقـائق المشـبه بـه يعـني ترشيح التشبيه ليؤكد أنهم دخلوا الدين وهم قـد خرجـوا منه ولم يجنـوا مـنـه فائدة ، تـنفيرا مـن حالهم ، وقـد وفـر لفـظ يمرقـون تصـوير السـرعة الخارقـة لخروجهم من الدين ، ونلاحظ في هـذه المجموعـة كيـف صـور الحـديث هـذا الصنف من البشر تاركا الحكم والتحذير لمن يسمع ولهذا أثره وتأثيره . .

الشح :

قال ﷺ لحكيم بن حزام : « إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك لـه فيـه كالذي يأكـل ولا يشبع »(١)

« العائد في هبته كالعائد في قيئه »(٢)

وفي رواية عن ابن عباس عن النبي ﷺ « لا يحل لرجـل أن يعطي عطـيـة أو يهب هبة فيرجع فيها إلا الوالد فيما يعطي ولده ، ومثل الذي يعطي العطية ثم يرجع فيها كمثل الكلب يأكل فإذا شبع قاء ثم عاد في قيئه »(٣)

وفي الأول تشبيه الحريص المتطلع للمـال بالـذي يأكـل ، ولا يشـبع ، وهـو تشبيه تمثيلي دخلت الأداة على اسم موصول لتحقيق جملة الصلة والغرض مـن التشـبيه ، وهـي صـورة قـد توجـد في دنيـا النـاس ، لكنهـا نـادرة ، فيهـا مرونـة واستمرار وإلحاح على الوجدان بالآكل النهم ثـم لا يشـبع تـنفيرا لمنافاتـه أدب النفس وأدب الطعام ثم تنفيراً من شبيهه الشحيح الحريص .

(١،٢) التاج الجامع ٢/٣٥

(٣) المرجع السابق ٢/٢٤٠

أما العائد في هبته حرصا فالروايتان تبلغان في التقبيح والتهجن كل مدى ، ونجد التمثيل يرسم بدقة صورة للبخيل العائد في هبته تنفره هو شخصيا وتقززه زجرا وردعا ، ودفعا له بأحط صفة في أقذر حيوان ، وكل عناصر الصورة يوفر هذا الجو : الكلب ـ شبعه ـ قيء الكلب ـ الرجوع في هذا القيء ، بحيث طمست صورة المشبه به على صورة المشبه فلم يعد إلا هذا الحيوان البغيض إظهارا للمشبه في معرض التشويه والتقبيح حسماً كالنار لداء اجتماعي خطير .

بعض صفات النساء :

قال رسول الله ﷺ :

(١) « مثل الرافلة في غير أهلها كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها »(١)

(٢) في إفشاء الأسرار الزوجية « إنما مثل ذلك مثل شيطانة لقيت شيطانًا في السكة فقضى منها حاجته والناس ينظرون إليه »(٢)

(٣) قال رسول الله ﷺ : « لمن سألته عمن تتشبع من زوجها كذبا « المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور »(٣)

(٤) « صنفان من أهل النار لم أجدهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا »(٤)

(٥) « إياكم وخضراء الدمن ، قالوا وما خضراء الدمن قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء »(٥)

---

(١) التاج الجامع ٣/٣١٧

(٢) المرجع السابق ٣/٣١١

(٣) المرجع السابق ٣/٣٢٣

(٤) المرجع السابق ٣/٢٨٩

(٥) المجازات النبوية للشريف الرضي ص ٦٩ ، تمييز الطيب من الخبيث لعبد الرحمن الشيبانى ص ٤٨

والحديث الأول يذم المرأة الغريبة تأخذ زينتها وترفل في حليتها بلا حياء ولا حراسة فهي تزرع الفتنة ، وتثير الشر وهي في بشاعتها وسوء أثرها كهذه الظلمة الحالكة الموحشة الموصوفة بأنها في يوم رهيب يتلمس فيه النور وهي لا نور لها. والمشبه به متخيل وهو مفزع كله مع تأكيد الظلمة بنفي النور عنها، فإذا لحقت بها هذه المرأة كان أشد في الزجر والوعيد والخيال يجمع بين مشهدين أحدهما في الدنيا والآخرفي الآخرة ، كما يلحظ أن المرأة بفعلتها تلك بغيضة إلى الله ومبغض كذلك من يقبل عليها ، والجزاء من جنس هذه الظلمة القاتمة التي لا نور لها .

والثاني زجر أداته التمثيل فيمن يفشيان سرهما إنه تمثيل متوهم ، مادته مخيفة ، ونجد تركيب التمثيل قد وفر له إيحاءاته الخاصة فتقديم الشيطانة للإيحاء بأن الأنثى داعية الإثم إن كانت آثمة «و«في السكة» لتكون الفضيحة أشهر والزجر أبلغ ، «وقضى حاجته» ، حياء وأنفة وتنفيرا ، و (الناس ينظرون) مشهد ضد الخلق والدين والهيئة الاجتماعية ، ويندي الجبين لهذا التصوير المتوهم بلوغا في الزجر مداه .

والمرأة التي تغيظ ضرتها متمدحة بما لم يحدث إنها تمثل نمطا من الناس يظهر الشبع بما لم يحصل عليه ، وهو كاذب مخادع كالذي يبالغ في التأنق بلبس ثوبين وليسا له ، ويوهم الناس بغناه وهو ذو مترية ، وقد جسم التشبيه هذه الصفات بإبراز المتشبع في صورة محسوسة مبالغة في التهكم والزجر ، ولقد توفر للحديث من المرونة والصدق والعموم ما جعله مثلا يقال فيمن تمدح بما ليس له . .

والممشطات شعورهن في سفور على هيئة نافرة عن الدين والذوق العربي تماثل أسنمة النياق المائلة على ما نراه في زمننا طلبا للإثارة ولفتاً للأنظار وجناية على الأخلاق ولبس كهذا التشبيه يرسم في فن صادق للإثارة الإسراف في الزينة بتقصيص الشعر ،وقد تناول الإسراف المظهر والمشبه والملبس أيضا ،

وهذا النوع قد عطف على الظالمين المتجبرين وقد حكم عليهما مقدما بأنهما من أهل النار ولما كان للنوع الثاني ، العواهر المتبرجات أثر أسوأ أكد الجزاء بأنهن لا يجدن حتى ريح الجنة مبالغة في الزجر وكناية عن البعد والحرمان .

ولقد آثرت الحديث الأخير ذلك أن الإمام عبد القاهر جعله من الاستعارة مما يؤخذ فيه الشبه من طرفين حسيين والوجه عقلي وقد وضح هذا الشبه العقلى تفصيلا[1] وما دعا الإمام إلى اعتباره من الاستعارة : افتقاره على الجزء الأول لأنه متعالم ولم يذكر بقية الحديث « المرأة الحسناء في المنبت السوء » وإن كنا نعذر الإمام لاقتصاره على ذكر الجزء الأول ونأخذ عليه عدم معالجته الحديث بتمامه ، فلا ينبغي أن نمنح ذلك لباحث يقول « الأمر أصلا قائم على التشبيه ثم ترك الأصل واستعيرت صورة المشبه به استعارة تمثيلية ، وهو نفسه قد ذكر الحديث بتمامه »[2] ، فكيف يكون استعارة وهي مبنية على تناسي أحد الطرفين وحذفه وادعاء دخوله في جنس الآخر مبالغة في دعوى الاتحاد والطرفان هنا مذكوران،الحديث إذن تشبيه تمثيلي أو مماثلة كما يرى أبو هلال العسكري الذي خرج الحديث عليها[3] كما صرح الرضي بالتشبيه حين قال « شبه المرأة الحسناء بالروضة الخضرة لجمال مظهرها ، وشبه منبتها السوء بالدمنة لقباحة باطنها »[4] وتفريق الرضي هكذا بين أجزاء المشبه والتماس ما يقابله في أجزاء المشبه به تمزيق للبلاغة وإنما الأدخل في بابها : تشبيه هذه الهيئة التركيبية ظاهراً وباطناً بهيئة النبتة الخضراء في التربة الرديئة ، وقدم المثل به تشويقا وتحذيرا .

---

(١) انظر : أسرار البلاغة ص ٤٧

(٢) انظر : الحديث النبوي من الوجهة البلاغية دكتور عز الدين السيد ص ١٧٩ وما بعدها

(٣) انظر : الصناعتين ص ٣٤٤ وما بعدها .

(٤) انظر : المجازات النبوية ص ٦١ .

التكلف في البيان :

قال رسول الله ﷺ :

« إن الله يبغض البليغ الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها »[1]

و« لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعراً »[2]

وفي الحديث الأول : الباقرة والبقرة واحدة البقرة وتحللها : لفها الكلاء بلسانها في شدقيها ، وهو تصوير للمبالغ في فصاحة الكلام ، المتعمق للإغراب فيه حتى يتكلف إظهار لسانه دائرا في فمه : بالبقرة تدير لسانها الطويل في فمها الوسيع الذي تفتحه مع حركات لسانها فيسيل لعابها وهدف التمثيل تقبيح المتكلف في بيانه برسم هذه الصورة الحية المتحركة الساخرة ، وكفى بالبقرة حين أكلها تنفيرا ، ونلاحظ هنا سقوط الأداة مبالغة في اتحاد الطرفين زيادة تأكيد للتقبيح .

والحديث الثاني : التشبيه فيه ضمني معكوس فقد شبه الأصل وهو القيح المحس بالفرع وهو الشعر مبالغة في الفرع بجعله أصلا في المعنى يقاس عليه ، فالشعر المعهود أشد نتناً وقذراً من القيح والصديد ، والغرض هنا : التشويه والتقبيح تنفيرا من قوله وروايته ، ولا ريب أن القصد إلى هجر القول ، وفاحش الكلام : أو ما يثير عصبية أو غضبا لاسيما أنهم كانوا حديثي عهد بالجاهلية قصد ظالم له أسوأ الآثار .

وهذه القضية أصبحت من الوضوح بمكان ، ولا بأس أن نورد حديثين هنا ـ عن أنس : أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة بين يديه يمشي ويقول :

خلوا بني الكفار عن سبيله	اليوم نضربكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله	ويذهل الخليل عن خليله

---

(١) التاج الجامع ٥/٢٨٥ (٢) المرجع السابق ٥/٢٨٠

فقال له عمر : يا ابن رواحة : بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر»؟ فقال له النبي ﷺ : «خل عنه يا عمر فلهي أسرع فيهم من نضح النبل»[1] وقال ابن عمر : قدم رجلان من المشرق فخطبا فعجبا الناس ، فقال رسول الله ﷺ «إن من البيان لسحرا»، وروى ابن عباس (إن من البيان سحراً ، وإن من الشعر حكما)[2] وفي التشبيه الأول تشبيه شعر الشاعر في إيلامه ، وسرعة تأثيره في تحطيم جبهة الشرك برشق النبال في ميدان القتال ، وهو محسوس له خطره وأذاه وأثره في النصر أو الهزيمة ، ترغيباً في مثل هذا الشعر المنافح عن دين الله بتصوير أثره .

وفي الثاني تشبيه بعض البيان بالسحر في استمالة القلوب واختلاب العقول والتأثير في النفوس تعجبا منه وتزييناً وحبا وترغيبا فيما يحق الحق منه ، ونلاحظ أن الطرفين معقولان والوجه أيضا ـ وإن كانت آثاره قد تدرك بالحس ، وقد أوردنا هذين الحديثين لما فيهما من تشبيه يدرس ثم هما مغنيان عن كثير ورد في البيان النبوي دعوة إلى الشعر والبيان ، وصفوة القول أن النبي ﷺ : وهو أبلغ البلغاء حبب البيان الطاهر النقي ، وزينه في قلوب أتباعه إذا هو بعد عن التكلف والتفحش والتزوير والبهتان وسار في دائرة الإسلام يرعاه وفي فلك الحق والفضيلة .

الغباء والعنف

صلى أعرابي خلف رسول الله ﷺ ثم ركب راحلته ونادى «اللهم ارحمني ومحمدا ولا تشرك في رحمتنا أحدا» فقال رسول الله ﷺ : «هو أضل أم بعيره : ألم تستمعوا إلى ما قال ؟ قالوا : بلى»[3]

عض رجل يد رجل فنزع يده من فمه فوقعت ثنيتاه ، فاختصموا إلى النبي ﷺ فقال : «يعض أحدكم أخاه كما يعض الفحل لا دية لك»[4]

---

(١) التاج الجامع ٥/٢٨٤
(٣،٢) المرجع السابق ٥/٢٨
(٤) المرجع السابق ٣/١٧

والأول بمناسبة رجل جاف ضيق النخيرة استخفه شعوره فدعا برحمة الله له ولمحمد ﷺ دون غيرهما ، وهذا جهل بصفات الله تعالى وقصر نظر ، فجاء التشبيه النبوي على سبيل المبالغة وادعاء الاتحاد بين الطرفين ، الرجل وبعيره الذي يركبه تناهياً في الغباء والضلال ، وقد جاء الأسلوب على سبيل التشابه مبالغة وتأكيدا ، وحثا على الفهم والتعلم وبينما نجد المرح الخفيف في حديث الأعرابي نجد الغضب العاصف في الحديث الثاني ، فقد صور الرجل وهو إنسان يعض يد أخيه بالفحل من الإبل وهو يعض في الوحشية والاندفاع والحيوانية (زجراً وتأنيباً) وقد أعان على ذلك كلمة «أخاه» وتقريعاً بالغبن ، والتشبيه حسي والوجه عقلي . .

الغضب والحسد :

قال رسول الله ﷺ :

«إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن أحس فليلصق بالأرض»(1)

«إياكم والحسد ، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب»(2) والغضب ـ فيما لغير الله ـ والحسد خلقان بغيضان ، الأول تظهر آثاره في تغيرات عضوية من ارتعاش وحمرة عينين وانتفاخ أوداج ، وما يعقب ذلك من عدوان ، والثاني : صفة سلبية في الأعماق ، تسبب المرارة والعذاب لصاحبها ، (ولذا ناسب تشبيه الغضب بحمرة تتوقد في قلب الإنسان ، وقد تسقطت مبالغة ، في إلحاق الغضب وهو شعور بالجمر المحسوس ، ثم رشح التشبيه وقوي الإلحاق بإبراز آثار عضوية فيها حمرة الجمر ووقدته تأكيدا ومبالغة وردعا عن الاسترسال في الغضب .

---

(1) التاج الجامع ٥/٢٩٩

(2) المرجع السابق ٥/٢٩

أما الحسد فإنه يتسبب في إزالة الحسنات كما تقضي النار على الحطب أو العشب وهو تصوير للمعنوي بالمحسوس ، ولما كان الحسد لا ثورة ظاهرة فيه وإن كان يمحو الحسنات جاء المشبه به نارا تأكل الحطب في هدوء . وفي النهاية لن تبقي منه أثرا ، وغرض الحديث الزجر والترهيب من صفة تلحق بالشرك لأن فيها اعتراضا على قدر الله وحكمته في توزيع رزقه على عباده .

فساد ذات البين ـ الشبهات ـ العدوى ـ حب الظهور :

قال رسول الله ﷺ :

« إياكم وسوء ذات البين فإنها الحالقة »[1]

« من وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، وحمى الله محارمه »[2] ، « فرمن المجذوم كما تفر من الأسد »[3] ، « ماذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه »[4] وتلك صفات متناثرة تجد التشبيه النبوي ينفر منها بما يهز الوعي ويؤثر في الإحساس .

فسوء ذات البين ، والإفساد بين الناس يذهب الدين كما تذهب الموسى الشعر ، وعملية إذهاب الدين معقولة جسمتها كلمة الحالقة ، بما ترمز إليه من عملية الحلق وإذهاب الشعر وتطييره في سرعة مع ما فيها من حركة لاتتوقف، فالعين ترى ، والخيال يتابع مستحضراً صوره المختزنة ، ولقد صدر الحديث بالتحذير « إياكم » وأكد الخبر بأن ، وسقطت أداة التشبيه ، وأتى بالمشبه به اسماً ، إثباتًا لوصف سيئ كل ذلك تنفيرا وترهيبا من ذلك الخلق الكريه .

والثاني تحذير من الوقوع في الشبهات ، وهي مالم يرد بها نص صريح يحلل أو يحرم ومرجعها إلى العلماء ، والورع تركها خوفا من الله تعالى ، أما المتهاون الذي يقع فيها غير محاذر فذلك يقربه من الحرام ، لأن إرادته وهنت

---

(١) التاج الجامع ٢٥/٥

(٢) المرجع السابق ١٩٢/٢

(٣) المرجع السابق ٢٢٠/٣

(٤) المرجع السابق ١٦٨/٥

وعزيمته ضعفت ، وهذه الهيئة المتعقلة صورت بهيئة محسوسة تدعمها وتؤكدها كالذي يرعى حول حمى يحميه ملك على عادتهم العربية - ربما تسول له نفسه ، أو تجذبه أعشاب الحمى فيرعى فيجر على نفسه الهلاك من غضب الأمير المالك ، وهذه الصورة المنتزعة خيوطها من البيئة العربية مرسومة بدقة قد يجد المرء لها تجاوبا في الإحساس وتأثيرا في الوعى مما جعلها من جوامع الكلم .

والجذام مرض خبيث يعدي ويهلك ، والعدو من قدر الله والحذر أمر الله والفرار واجب ولن تبلغ الدعوة إلى الفرار ما بلغه هذا التشبيه ، كما تفر من الأسد ، مع تكرار لفظ الفرار ، مضارعاً مستمرا واستحضار صورة الأسد بما له من وحشية وافتراس تأكيدا للحذر ودفعا إلى الفرار والهرب .

والحديث الأخير يسميه النقد الحديث بالأسلوب الدائرى ، وقد تقدم فيه المشبه به على المشبه ، وهو تحذير من الحرص على المال ، وحب الظهور وإفسادهما الدين ، وهذا معنوي لا يحس ، فأراد أن يتبين أثر هاتين الصفتين فصورهما بذئبين بما فيهما من غدر ووحشية ، ثم وصفهما بالجوع - مبالغة في شهوة الافتراس ، ثم أتى بصفة ثالثة متخيلة مثيرة ، هي إرسالهما في غنم ، فالفرصة مهيئة للافتراس ومع كل ذلك هما أقل إفساداً من غيرهما - ويبلغ الشوق مداه حتى يقع على المشبه وهو صفتا الحرص والشرف فيستقر المعنى، بعد أن يبلغ التحذير مداه نفسيًا وعقليًا .

فضل المدينة والحجاز :

قال رسول الله ﷺ :

(١) « إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها »[١]

(٢) « إن الدين ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها ، وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأردية من رأس الجبل ، إن الدين بدأ غريبا ويرجع غريباً فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس في سنتى »[٢]

---

(١) التاج الجامع ١٨٢/٢

(٢) المرجع السابق ٣٣٥/٥

(٣) «لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء»[(١)]
(٤) «لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد»[(٢)]

وهذه الأحاديث توضح فضل الحجاز، وخاصة المدينة منه، ولقد بين الحديث الأول: تدين أهل المدينة وقوة إيمانهم الذي يلازمهم ويأوي إليهم حتى آخر الزمان، وأتى بالتمثيل الحسي تقريرا وتثبيتا له في الوعي، ولجوء الحية بعد تطوافها، أو في أوان شدتها إلى جحرها مشهد منظور إلا أن اجتماعه في قرن مع المشبه لا يخطر على بال، وهذه الجدة، والطرافة، وهذا التمثيل المتحرك يوحي بأن المدينة ملجأ الإيمان كله كما كانت منبعه، وأن الدين سيكون يوما بغيضا كأنه الحية تفر إلى مأواها وذلك معنى الغربة المؤكدة ببقية الحديث «إن الدين بدأ غريباً ويرجع غريباً فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس في سنتي»، وتثير لى هنا كلمة الغربة وتكرارها بما يوحي بالضياع وعدم الألفة وإثارتها ذكريات خاصة، ووقعها في كل نفس فتهب التشبيه جدة وخلودا.

وحديث الحجاز: وسع الدائرة قليلا، وجعل الحجاز - وفيه المدينة نبع الهدى ومقره لاسيما آخر الزمان، بيد أنه قد زاد على التشبيه الأول تأكيدا جديدا بتصوير بدوي معبر هو اعتصام الوعول الجبلية برءوس الجبال، وهذا التمثيل بما فيه من قوة، وشاعرية يقوي جانب المشبه، وهو اعتصام الدين بالحجاز ولا يخفى أن الصورة تساعد في نسجها المجاز بما له من قوة وبلاغة وإيحاء.

وباقي أحاديث المدينة توضح أن الله حفظها من كل شر يراد بها أو فساد يقيم بين ظهرانيها، ولقد جاء التشبيه قويا بما التقط من صور تفرض نفسها على الوجدان، فالكيد والإهلاك معنوي قرب بهذا المثل العجيب: انمياع الملح

(١) التاج الجامع ١٨٥/٢
(٢) المرجع السابق ١٨٨/٢

في الماء ، دلالة على سرعة الإهلاك ، والبطش التلقائي الذي نلحظه في الفعل «انماع» الذي يفيد المطاوعة وفيه :

(١) سرعة الإهلاك ، والانهيار لمن يكيد ، أكدها بسرعة التحلل والضياع .

(٢) وقوع هذا العذاب تلقائيًا بما دل عليه «انماع» فعل مطاوعة دون نص على الفاعل مبالغة في الانهيار وأنه ذاتي لا بتأثير خارجي

(٣) الملح والماء ضدان لا يجتمعان كالمعتدي والمدينة لا يلتقيان فهو دليل حسي من الصورة يؤكد المعنى ويرسبه في الإحساس .

والحديث الثالث : تغيرت الصورة لتغير المعنى إذ المفسد هنا من الداخل - ولسوف تلفظه هذه الهيئة الاجتماعية بتركيبها الإلهي ، فصور المدينة بالكير يوقد النار على معدن الحديد لينفي خبثه ، واجتماع الكير مع الحديد بالذات يوضح شدة النفي وقوة الرفض والتنقية ، وصورة الكير أو النار مع المعادن تكررت في التشبيهات النبوية لأنها من المشاهدات الدائمة ، ولكن التشبيه بها كان يحمل معنى جديدا دائما يناسب المقام .

* * *

من أغراض التشبيه النبوي
تصوير الفتن ، وبعض مشاهد القيامة

الفتن :

(١) أشرف النبي ﷺ على أطم من الآطام فقال : «هل ترون ما أرى ، إنى أرى الفتن تقع خلال بيوتكم مواقع القطر»(١)

(٢) قال عليه الصلاة والسلام «بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا ، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا»(٢)

(٣) من حديث الفتن «ومنهن فتن كرياح الصيف منها صغار ، ومنها كبار»(٣)

(٤) «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عودا ، فأى قلب أشربها ، نكتت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصور على قلبين على أبيض مثل الصفا ، فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيا ، لا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه»(٤)

(٥) «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك صغار الأعين ، حمر الوجوه ، ذلف الأنوف كأن وجوههم المجان المطرقة»(٥)

---

(١) التاج الجامع ١٩١/٣ (٢) المرجع السابق ٢٠١/٥
(٣) المرجع السابق ٣٠٥/٥ (٤) المرجع السابق ٣٠٩/٥
(٥) التاج الجامع : ٣٢٤/٥ والأذلف : قصير الأنف منبطحه ، والمجان : التروس والمطرقة أي ذات طبقات من الجلد .

(٦) من حديث نزول عيسى عليه السلام «فينزل عيسى ابن مريم ﷺ فأمهم فإذا رآه عدو الله (الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فلو تركه لانذاب حتى يهلك ، ولكن تقبله الله بيده ، فيريهم دمه (الدجال) في حربته»[1]

ولابد من مقدمة هنا :

فالمتفق عليه أن الله سبحانه أخبر نبيه عليه الصلاة والسلام ما يكون من فتن في أمته حتى قيام الساعة ، كما أعلمه وأراه الإسراء والمعراج وفي يقظته ونومه ما يكون يوم القيامة ابتداء من الحشر والحساب ومشاهد الجنة والنار ، وقد صور القرآن من مشاهد القيامة ما أفرد له بعض المحدثين مؤلفا شائقاً ، وبراعة التشبيه النبوي في استحضار الغائب ، وتقريب البعيد ، وتشخيص المتوهم ماثلا في العقول نابضا في الخيال مجسماً في محسوسات تتوارد على الحواس الإنسانية ولقد مثلت الفتن بأربع صور :

وقوعها كمواقع القطر بين مساكن المدينة :

كقطع الليل المظلم كرياح الصيف صغارا وكباراً

التقتا منها بالقلوب كالحصير عودا عودا .

وكل تشبيه صور جانبا منها : فهي في المدينة تكثر وتتوالى كأنها أمطار منهمرة تملأ الفراغ ، وتفيض بالمياه ، والمشبه به محسوس له في الوجدان العربي وقع وارتباط عاطفي فهم يشيمون القطر ويتلهفون إليه ، وقد سموه غيثاً ، وحيا ، فالتمثيل به يقوى المشبه ويؤكد المبالغة في كثرة الفتن ، وإعطائها وقع المطر وتتابعه . .

والثاني : وصف للبلبلة والحيرة واضطراب النفوس ، فالفتن كظلام الليل بل إن الظلام ليتكاثف فيتكون قطعاً سميكة متشابهة ، والليل وظلمته كمظهر كوني له انطباعاته خاصة في بلاد لليل فيها وحشة ، وأهوال ، ألم يقل النابغة مصورا بطش النعمان :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

(١) التاج الجامع : ٣٢٩/٥

والتشبيه هنا ملحوظ فيه مظهران : حسي لونا في سواد مبصر ، ولمساً في تماسك قطعه تخييلاً ، ومعنوي بما يبثه الليل في النفوس من رهبة وفزع . ولا يخفى نظرة الحديث إلى الآية القرآنية : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (يونس:٢٧)

والثالث تمثيل الفتن في تفاوتها عنفا ، ولينا ، طولا وقصرا برياح الصيف منها القوي العاصف ، ومنها القصير الواهن ، والمراد تتابع الفتن المختلفة وكثرة البلاء ، والتشبيه هنا ملتقط من مظهر طبيعي محسوس باللمس والأثر وقوة في التثبيت . .

وكأن امتداد هذه التشبيهات من مظاهر كونية يفيد أن المرء لا يملك لها دفعا وأنها في وقوعها على مقتضى علم الله وقدره ، كهذه الظواهر الطبيعية التي تسير على نظام غريب بديع ، وتقدير إلهي لا يدفع ، دلالة على أن وقوع الفتن يقين لا ريب فيه ، أما الموقف البشري من هذه الفتن فقد صوره الحديث الرابع على مرحلتين : أولاهما : فظاعة الفتن التي تفرض نفسها على الناس ، وتجد منهم إصغاء وميلاً ، وولوعاً واهتماما ، فهي تنزل على القلوب مباشرة متوالية متكاثرة بانتظام في جوانبها ، وتلك أمور معنوية مثلت بالحصير متراصة أعواده في نظام أفقي في عرض ـ إشارة إلى الافتتان بها لأنها تعرض مباشرة على القلوب ـ إنما يعطي للتشبيه قوة مستمرة .

ومع شدة الاهتمام بهذه الفتن انقسم الناس حيالها فريقين ، وتلك حقيقة إنسانية صورها الحديث ، فالناس إما منكر لها أو خصائص فيها والمسالم منها وهو المرضي عنه ، قد جسم منه هذا الموقف بالنكتة البيضاء التي تتكاثر دلالة على كثرة المواقف ، ولكثرة الفتن حتى يبيض القلب ، ولتقوية هذا التخييل يشبه القلب بالصفا وهي الصخرة الملساء البيضاء التي ينزلق ما يقع عليها ، ووجه الشبه : النقاء والبياض ، وعدم ثبات ما يقع عليها ، وقد رشح التشبيه

بقوله «لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض»، ومن يخوض في الفتن جسم رضاءه وحبه لها بنقاط سوداء في قلبه ، وقوي التجسيم بتمثيل آخر قوي مثير : إنه كهذا الكوز الذي يكثر في البيئات البدوية الفقيرة بل أكثر من ذلك : أسود اختلط السواد ببقايا بياض متقذر ، ثم هو مهمل بقوله : منكس ـ وكلمة «مجخيا» بصوتها الضخم العريض تصور هذا النتن ، وللتنكيس والعفن دلالة الإهمال ، ولا يخفى من كل ذلك ـ بلوغ التنفير والتحذير بهذا التصوير منتهاه ، ومقابلة الصنفين بعضهما ببعض يؤكد الترغيب في النهج الأول ، والتنفير من الثاني وهما هدف الحديث .

أما حديث الأتراك : بتشبيه وجوه بعضهم بتروس من جلد ذي طبقات في الاستدارة ، وكثرة اللحم ، دلالة على الغلظة والقسوة ، وكأن الظاهر عنوان الباطن فهو لبيان الحال حتى يدرك ويعرف . .

وحديث الدجال : يؤمن به كل مسلم ، وما في الحديث توضيح لنهاية الدجال على يد عيسى ، إن الدجال يدرك نهايته فيكاد يموت رعباً ، إنه آية من آيات الله تنتهي حين يشاء الله ، وقد صورت هذه الهيئة بهيئة الملح في الماء يذوب ، دلالة على سرعة الانهيار ، وقد سبقت الصورة بالفعل (ينماع) وهنا استعاض عن إيحاء الفعل بجملة ترشح التشبيه ، فلو تركه لانذاب حتى يهلك ، ولكنه يقتل .

إن الكلمة عند نبي الله ﷺ كانت تولد صورا ، وتثير عواطف وتنقل السامع إلى عالم تحييه التشبيهات الشاخصة ، والتمثيلات الصادقة .

أحاديث الحشر والقيامة :

المجموعة الأولى :

قال رسول الله ﷺ :

«إن أمتي في الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود»[1]

---

(١) التاج الجامع ٥/٣٧٠

«ما مثلكم والأمم إلا كمثل الرقمة في ذراع الدابة ، أو كالشامة في جنب البعير»[1]

«من حديث أبي هريرة عن الصراط ، يمر أولكم كالبرق ، قال :قلت بأبي أنت وأمي أي شيء كمر البرق ؟ قال : ألم تروا إلى البرق كيف يمر ، ويرجع في طرفة عين ثم تمر الريح ، ثم تمر الطير ، وشد الرحال تجري بهم أعمالهم ، ونبيكم قائم على الصراط يقول : سلم سلم»[2]

وهذه المجموعة تدور حول الحشر وبعض أحداثه ، والحديث الأول يبين نسبة الأمة الإسلامية إلى العالمين ، وقد ضمهم مشهد واحد ، وهم قلة ضئيلة من البشرية التي استعمرت كوكب الأرض آمادا طويلة ، وقد جاء التشبيه ملتمسا من واقع البيئة العربية ، مبينا المقدار ، إن الأمة قلتها كشعرة بيضاء في ثور أسود ـ بهذا التصوير الدال ، وفيه دلالة على الحشد الهائل من البشر الذين سبقوا الفصل بينهم كما يدل على القوة القاهرة ، والسلطان المطلق لله تعالى ، والعجب في هذا الحديث هذه الدقة المتناهية في التقاط ما قد يخفى عن الأنظار مطلقا ، خاصة في أوان حضور المشبه ، ثم بناء التشبيه عليه ذهابا في الغرابة والجدة والمبالغة كل مذهب ونجد هذه المبالغة في القلة في الحديث التالي : فالرقمة في ذراع الدابة ، والشامة في جنب البعير لا يدركها إلا عين لاقطة ، وفطنة خارقة ، وخيال فني يكتشف أدق العلاقات بين أبعد الأمور وأشدها اختلافا عند أول وهلة . .

أما حديث الصراط : فقد صور مرور الناس عليه بسرعة تختلف باختلاف أعمالهم الصالحة ، كثرة وقلة ، والأولون في سرعتهم الخارقة كالبرق ، ويبدو أن هذا التشبيه من الجدة ما جعل أبا هريرة ﷺ يستفسر عنه ، فوضح النبي عليه الصلاة والسلام هذا التشبيه كيف يمر البرق ويرجع في طرفة عين «فهي

---

(١) التاج الجامع ١٦٠/٤

(٢) المرجع السابق ٣٧٨/٥

سرعة خارقة ، والنوع الثاني : أقل نسبيا منهم ، فهم كالريح ، والثالث : كالطير المحلقة ، والرابع : كالقافلة تتهادى في طريق طويل ، ونلاحظ هنا الترتيب التنازلي في المشبه به ، فالبرق هناك لماح خاطف ، وهو أعلى أبدا من الريح ؛ لأنه بين السحب لا تدرك طبيعة في طبقات الجو العليا ، والاثنان ظاهرتان كونيتان تشد الناس إليهما ، ثم الطير وهي أقل من الريح سرعة ، والقافلة نهاية هذا الخط التشبيهي الممتد بين السماء والأرض ، وقد رسمت الصورة بشمول ودقة ، وجاءت «ثم» لتبين التفاوت في السرعة والمرتبة أيضا ، وجاءت الواو في شد الرحال لأنه قريب من الطير في سرعته ، والخيال يتابع كل أولئك في لهفة وشغف ، وبراعة التشبيه - مع أنه قريب - جمعه بين هذه التشبيهات العديدة المستقصية في قرن واحد من صور حسية في الواقع لصور متخيلة في أذهان السامعين . .

المجموعة الثانية : (النعيم الأخروى)

(١) من حديث الحوض : قال رسول الله ﷺ «فماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل»[١]

(٢) قال أبو هريرة : كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ قال : «أرأيت لو أن رجلا له خيل غر محجلة بين ظهرى خيل دهم بهم ، ألا يعرف خيله ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ؟ قال فإنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء ، وأنا فرطهم على الحوض ، ألا ليذادون رجال عن الحوض كما يذاد البعير الضال أناديهم : هلم فيقال : إنهم قد بدلوا ، فأقول سحقا سحقا»[٢]

(٣) «إن أهل الدرجات العلا ، ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق السماء»[٣]

---

(١) التاج الجامع ٣٨٠/٥

(٢) المرجع السابق ٤٥/١

(٣) المرجع السابق ٣١٦/٣

(٤) عن الجنة «إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته»[1]

والنعيم الأخروي يختلط فيه التكريم الحسي بالمعنوي ، يتمثل الحسي في الورود على الكوثر وهو تكريم للنبي ﷺ وتكريم لأتباعه ، والحديث الأول في وصف مائة لونا وطعما ، واللبن يضرب به المثل في الغذاء الكافي واللون الأبيض والعسل في الغذاء وحلاوة الطعم ، فهل جاء التشبيه بالإلحاق المعهود بالأداة؟ لقد ادعيت المبالغة في الوصف حتى فاق بياض اللبن ، وحلاوة العسل ، وقد يكون حقيقة ، وذلك لا يمنع من القياس والمشابهة ويكون الغرض من التشبيه التفريع ، والتوضيح والبيان . .

والثاني في رؤية الله سبحانه في الجنة ، ولما كانت رؤية الله سبحانه وتصويرها في الجنة أمر بعيد عن الأذهان والوهم ، جاء التشبيه ليحققها ويقررها بالقمر المشار إليه ، وقد غمرتهم أضواؤه ، ثم بالاحتراس المتمم ، «لا تضامون في رؤيته» ،تقريبا للبعيد ، وإمكانا للمستحيل في العادة ، وكما أن القمر له انطباعه السامي في النفوس كذلك نرى التمثيل بالنجم الطالع في أفق السماء لبيان فضل المتقين من أهل الدرجات العلا على من سواهم وهو تفاوت كبير يحار فيه العقل والخيال ، فكم بينهم وبين النجم من آماد ومسافات يطويها الخيال في لمحة ليجمع شتات الصورة فتتسرب إلى الأعماق وتتأكد المنزلة العالية لأهل الدرجات العلا . .

وحديث الوضوء بما فيه من تقديم هيئة المشبه به المعروف لدى المخاطبين في صورة استفهام تقريري ، وإلحاق المشبه به في الشهرة والوضاءة تحقيقا للتمثيل ودعوة قوية إلى الصلاة والوضوء . .

---

(١) التاج الجامع ٥/٤٢٢

المجموعة الثالثة : «من مشاهد العذاب»

قال رسول الله ﷺ :

(١) «يؤتى بالرجل يوم القيام فيلقى في النار فتنزلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر فيقول : بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه»(١)

(٢) عن جهنم «وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان»(٢)

(٣) «صنفان من أهل النار لم أجدهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا كذا»(٣)

وقد جاء في التشبيه ـ من العذاب الأخروي ـ لقطات حية عجيبة ، والحديث الأول في الدعوى إلى العمل بالعلم ، والتنفير ممن يدعو إلى الله ثم لا يعمل بدعوته متسترا ، إن جزاءه إشهار فضيحته بعذاب شاذ الصورة الفنية اندلاق أمعائه بقوة من بطنه فيسقط كريشة كله ويبقى معي واحد يربطه بما اندلق منه في حجم رهيب ، والألم يفقده صوابه فلا هو يستطيع قطع أمعائه ولا هو ساكن ، ولكنه يدور حولها مجبرا مضطرا ، إنها صورة رهيبة تكاد تنطق ، وهي متخيلة ، فيأتي التشبيه بتحقيقها فهناك لف دائري متصل مع الإجبار والإهانة تمامًا كالحمار يدور في الرحى مهانا مجبرا ، ونلاحظ هنا القصد إلى لفظ الحمار والرحى دلالة على تفاهة العمل واندلاق الأمعاء بقوة ، كما كانت الخطب تندفع بقوة ثائرة مجلجلة ، والإعجاز هنا انتقال الخيال بين مشاهد القيامة الرهيبة المتخيلة وبين الدنيا متابعا الحديث المستمر الذي لا نهاية له ثم

---

(١) التاج الجامع : ٢٢٣/٥

(٢) المرجع السابق ٣٩٧/٥

(٣) المرجع السابق ١٧٩/٣

ينضب التصوير على بيان السبب في محاورة ـ محسوسة يبين منها أنه آمر ناه غير منفذ لما يقول ، فيبلغ التحذير والتنفير مداه مع هذه السخرية من غباء يغطي العقل ويلغي التفكير .

ومن مظاهر التعذيب الحسي ، كلاليب جهنم ، وهي غريبة فليست ملتوية مع ملامسة فيها ، ولكن لها صورة مرعبة فعلى أنحائها مثل أشواك السعدان ـ الصحراوية مدببة مسنونة ، وحين يتمثل المرء كلاليب فريدة شاذة بأشواك حادة يبلغ الخوف والتخويف مداه . .

وقد نجد من لمحات العذاب النفسي سوق المرء إلى الحوض المعد للمتقين ليطفئ ظمأه الملتهب ، عبثا به ، لكنه حين يكون قاب قوسين يطرد باحتقار ، وقد شبه هذا الطرد والإبعاد بطرد البعير الضال الشارد مبالغة في الإبعاد والتعذيب النفسي ، والصورة هنا ملتئمة مع الغرض ، فالعاصي لله ورسوله تارك الجماعة نافر كالبعير الضال الذي لا صاحب له ، ولا قافلة ينساق معها .

وبعد : نتيجة ونقاش

فقد وضح مما سبق ، كيف مكن التشبيه الغريب في لقطاته ، الصادق في نفاذه ، لما سيق له من تبشير وإنذار ، وترغيب وترهيب ، لصور فيها خفة وطرافة وتخييل وتجسيم وتركيب يحرك قوى النفس لتتملاها وتنبهر بها وتتأثر راضية أو نافرة راغبة أو راهبة ، مشوقة هائمة أو حائرة خائفة ، كل ذلك يرد رأيا للعلوي يقول فيه «أما التشبيهات الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية فإنها كلها قريبة وماذاك إلا إنها أدخل في التحقيق وأقرب إلى التيقن مما لا يكاد يقع فلهذا كانت مختصة بهما»(١)

(١) الطراز ، يحيى بن حمزة العلوى : ٢٨١/١ ، ٢٨٢

والقـرب المزعـوم هنـا ضـرب مـن الادعـاء ، ذلـك أن دواعـي الغرابـة والاستطراف ليس تحقيق الصـورة أو عدمـه ، كمـا يقـول الإمـام عبـد القـاهر ، «أنك ترى بها الشيئين متباينين ، ومؤتلفين مختلفين ، وتـرى الصـورة الواحـدة في السماء والأرض ، وفي خلقة الإنسان ، وخـلال الـروض»[1] ، ويقـول أيضـا : «فسواء في إثارة التعجب وإخراجك إلى روعة المستغرب ، وجودك الشـيء في مكان ليس من أمكنته ، ووجود شيء لم يوجد ، ولم يعرف مـن أصـله في ذاتـه وصفته»[2]. ولقد وجدنا كيف دق المسلك إلى المشابهات الخفيـة ، والعلاقـات الغامضة والصور المستحدثة ؛ بلى كيف عبر التشبيه عن متخيـل غـير متحقـق ، وعن متوهم غير مظنون ككل مشـاهد القيامـة ومـا سـبق مـن جعـل الشـياطين حذفا والبيان سحرًا والفيء مثل الشراك ، ومن في الدنيا غـريـب أو عـابر سـبيل إلى غير ذلك كثر كـاثر ممـا يجعـل تلـك الـدعوى ممـا لا يتناسـب والعلـوي ورسوخ قدمه في البلاغة والبيان رحمه الله تعالى . .

* * *

(١) أسرار البلاغة : ص ١٠١

(٢) المرجع السابق : ص ١٠٢